الفصل الخامس:

آلات الحقيقة

إن قصف الإسكندرية كما يحكي لنا إنجليزي شهد من على ظهر سفينة في البحر الحدثَ الذي كان بدايةَ الاحتلال الاستعماري لمصر.

بدأ يوم الثلاثاء، الحادي عشر من يوليو، عام ١٨٨٢ في الساعة السابعة صباحًا. من حيث كانت السفينة تانجور *Tanjore* راسيةً، أمكننا رؤية المشهد كله بوضوح تامٍّ من خلال نظّاراتنا. وبالنسبة لمدنيٍّ لم يرَ حربًا، كان المشهد رائعًا[١].

خلال يومين تحوَّل القسم الأكبر من الإسكندرية إلى أنقاض ورماد. ولم يتحدد أبدًا أي قدر من هذا الدمار كان راجعًا إلى القصف البريطاني، وأي قدر منه يرجع إلى السكان المحليين الذين ردُّوا بإضرام النيران في ممتلكات الأوروبيين. بدا أمرًا لا أهمية له مطلقًا أن تُسبِّبَ بريطانيا تلك الخسارة للأوروبيين الذين زعمت أنها تتصرف دفاعًا عنهم. يُحكى لنا أن «صبر. الجمهور البريطاني قد نفد» وأن «شيئًا فعّالا» يجب أن يُتَّخذ[٢]. وفي أعقاب القصف أُرسل مُشاةُ البحرية إلى الشاطئ، يصاحبهم نوع جديد من الأسلحة تم اختراعه في ستينيات القرن التاسعَ عشرَ، هو الرَّشاش من طراز جاتلينج *Gatling* وبمساعدة هذا السلاح السريع النيران، امتلكوا زمام المدينة بعد أسبوع من قتال الشوارع.

عندئذ صاحبت المدافعُ الرشاشةُ البريطانيين أثناء تقدمهم باتجاه هدفهم الأوسع، إسقاط الحكومة الوطنية الجديدة. قبل ذلك بعام، كان الضباط الصغار في الجيش المصري قد وصلوا إلى السلطة، متوعِّدين، إن لم يكن بثورة، فعلى الأقل بنهاية للسلطة المطلقة للنخبة التركية ومُقرضيها الأوروبيين، وبنهاية وطأة الديون التي تُقعد الفلاحين. وقد هزمتهم القوات البريطانية خلال ثمانية أسابيع. وفي المعركة الختامية في التَّلّ الكبير «أعطت» الرشاشات الجديدة «الدعم الأشد فعَّالية، بإطلاقها النيران بدقة كبيرة على العدو أينما كان عرضة لها»[٣] حينئذ تحولت الكفاءة الميكانيكية للغزو إلى استعراض لقوة بريطانيا العسكرية. «يوم الثلاثين من سبتمبر جرى استعراضٌ ضخمٌ أمام الخديوي لكل القوات (البريطانية). ولهذا الغرض

(1) Baron de kusel, An Englishman's Recollections of Egypt, 1863 to 1887 (London: John Lane, The bodley Head, 1915, P. 199.

(2) The Earl of Cromer, Modern Egypt, 1:296-8.

(3) Col. J. F. Maurice, MilitYary History of the Campaign of 1882 in Egypt, pre-pared in the intelligence branch of the war office (London: HMSO, 1887), p. 96.

جرى تدريجيًا تجميع الجيش في القاهرة. لم يكن الأمر مجردَ استعراض ولا مجردَ مشهد ترويحي. فلا يكاد يمكن تخيُّل منظر محسوب للتأثير على سكان شرقيين أكثرَ من استعراض الأسلحة المتنوعة للقوات الصغيرة التي أمسكت بين يديها بمصير مصر في مثل هذا الوقت القصير»[1]. أكثر من كونه مجرد عرض، أظهر استعراض الأسلحة «لسكان شرقيين» فعَّالية وسلطة الاحتلال العسكري البريطاني. وأصبحت السرعة والكفاءة التي تَلخِّصها المدافع الرشاشة الجديدة المعروضة هي علاقة السلطة الاستعمارية البريطانية.

عند قراءة التاريخ الرسمي للغزو الذي نشرته وزارة الحرب في لندن، يستشعر المرء الثقةَ الملحوظةَ بالنفس التي أعدَّ البريطانيون للاحتلال ونفذوه بها. وجَعَل هذه الثقةَ بالنفس ممكنة، المواردُ الهائلةُ للإمبراطورية البريطانية، بما في ذلك أسلحتها الجديدة. كانت ثقةً تبدو ناشئةً -بوجه خاصٍّ- عن تنسيق هذه الموارد، وعن الوسائل الحديثة للنقل والاتصالات. «التقرير التالي» كما يقول التاريخ الرسمي بأسلوبه الواثق بنفسه، حين يصف الأيام السابقة على قصف الإسكندرية، «سيعطي فكرة ما عن المسائل التي كان لابدَّ من إقرارها في ذلك الحين».

«اتُّخذت الترتيباتُ لتقديم الخيام، والخشب للوقود لعشرين ألفَ رجل لمدة ستين يومًا من قبرص، وللاستعداد لشراء البغال. وتم التوصل إلى قرار بشأن تشكيل فرقة مهندسين لإنشاء الخطوط الحديدية، وتنظيم سلاح للشرطة العسكرية، ووضع قواعد لمراسلي الصحف. وكان لابدَّ من دراسة إنشاء مستشفيات في جوزو (مالطة) وقبرص، والإمداد بالمياه، والمسدسات، والعربات، ومدِّ خدمة الرجال الذين كانوا يخدمون في الفصائل من ست سنوات إلى سبع سنوات. وتم التوصل إلى قرار بشأن إنشاء سلاح للبريد وصُمِّم نظام له. وتقرر الترتيب مع الحكومة الهندية لإرسال قوات من هناك. كانت كل هذه النقاط قد حُسِمت ودُرِست التفاصيل في الإدارات، بحلول العاشر من يوليو»[2].

إن السيطرة على الاتصالات قد جمَّعت كل الموارد العسكرية للإمبراطورية وركَّزتها في موقع المعركة. أُنشئت الخطوطُ الحديديةُ لتحمل القوات من اشتباك إلى الذي يليه. وتقدم سلكُ التلغراف وخَدمةُ البريد بنفس المعدل، ليحملا التقارير اليوميَّة لمراسلي الصحف - وكذلك الخطابات الشخصية للجنود- إلى «الجمهور البريطاني» النافد الصبر الذي خيضَت

(1) Maurice, Military History, P. 105.

(2) ibid. P. 6.

الحرب لصالحه. كان تنسيق حركة الأوامر، والجنود والإمدادات، والتقارير الصحفية، وحتى المراسلات الخاصة، كانت كلها تسهم في فعَّالية بريطانيا العسكرية؛ كانت كلها تقدم مثالاً أبعد مدًى، بعبارة أخرى، على فعَّالية أساليب النظام والانضباط التي فحصتُها في الفصول السابقة. لكن هذا التنسيق أسهم كذلك، دون شك، في تأثير الثقة الذاتية. إن الانجازات المفاجئةَ في تطوير تكنولوجيا الاتصالات خلال الثلث الأخير من القرن التاسعَ عشرَ، والتي بلغت ذروتها عام ١٨٩٥ في عرض ماركوني الناجح للتلغراف اللاسلكي، هذه الإنجازات أتاحت كلًا من التغلغل المتصل للنظام الاستعماري وكذلك ما يمكن تسميته بأنه حقيقته. ومنحت السلطات السياسية العالمية ليس فقط تفاصيلها العملية بل حقيقتها الاصطناعية. من المشاهد السياحية للقصف واستعراضات الأسلحة إلى التقارير الإخبارية بالتلغراف وبطاقات البريد المرسلة إلى الوطن، ظهرت الكولونيالية العالمية إلى الوجود ليس فقط بوصفها منهجًا محليًا للنظام، يسعى إلى العمل على العقول والأجسام الفردية، بل بوصفها عمليةً تقوم بشكل متصل بالتقارير الإخبارية عن نفسها، وبتصوير نفسها، وبتمثيل نفسها *(Representing itself)* والمَعارض الضخمة التي ناقشتُها في الفصل الأول كانت مجردَ نقاط ذات أهمية خاصة في عملية التمثيل المتصلة هذه. وفي إطار مثل هذا العالم من التمثيلات يمكن تشكيل وتسلية الجمهور العام -هذا الكائن الفضولي- وإنتاج يقين سياسي حديث. ومسألة اليقين هذه، التي أثرتُها في الفصلَين الأول والثاني، هي ما أودُّ العودة إليه الآن.

يمكن المرءَ أن يدرس هذا اليقين العالمي باعتباره مجرد نتيجة نهائية لتطورات تاريخية طويلة متعددة. في هذه النظرة فإن المدى، والسرعة، واليقين المتزايدين باستمرار لوسائل الاتصال مقرونة بالمدى، والسرعة، واليقين المتزايدين لوسائل الدمار سوف تقابل، وتضيف إلى المدى، والسرعة، واليقين المتزايدين، كما يمكن القول، لحقيقة وسلطة القوة السياسية الحديثة. إلا أن مثل هذا التناول سوف يُعتَبر أن طبيعة هذا النوع من السلطة والقوة هي شيء مسلم به، وسوف يفحص نموَّها وليس نوعيتها الخاصة. وبعبارة أخرى، فإنه لن يستكشف البعد التمثيلي لهذه السلطة، وهي سلطة عملت أكثرَ فأكثرَ عن طريق المناهج التي أشرتُ إليها بتسمية العالم بوصفة مَعرضًا. وما أريد وصفة هنا هو تميُّز هذا النوع من السلطة والحقيقة. إنها حقيقة عصر التلغراف والمدافع الرشاشة، عصر التمثيلات والمَعارض، وهي سلطة مُتخيَّلة ومُنتَجة على صورة هذه الآليات، إلا أن تفكيرنا في هذه السلطة هو ذاته شيء يحيا في إطار

لغة الآلات والاتصال، أي لغة التمثيل. وبانحصارنا على هذا النحو، فإننا قاصرون عمومًا عن دراسة الطريقة البالغة الخصوصية التي تنتج بها حقيقة تلك السلطة السياسية.

ولرؤية خصوصية هذه السلطة فإنني لا أقترح فحص مصادرها بل مقارنتها بوسائل تحقيق السلطة والحقيقة التي كانت السلطة الاستعمارية ستحلُّ محلَّها، في حالة مصر. من خلال استخدام الكلمات. أولاً: فكما رأينا سابقًا عند النظر إلى مدرسة الجامع الأزهر، فإن التفسير المعتمَد للنصوص القانونية والدراسية كان جانبًا دالًا للطريقة التي اعتادت سلطةٌ سياسيةٌ أقدمُ العملَ بها وثانيًا: فإن ما حدث للكتابة في مصر أواخر القرن التاسعَ عشرَ يقدم توازيًا مع تغيُّرات سياسية أوسعَ مدًى. والتحوّلُ الذي حدث في طبيعة الكتابة يناظر التحولَ الذي حدث في طبيعة السلطة السياسية. فكلٌّ من الكتابة والسياسة، كما سأجادل، أصبحت تُعتَبر شيئًا ميكانيكيًا في جوهره. فجوهرهما في كلتا الحالتين سيُعدُّ عملية اتصال. الاتصال والآلات قد يبدوان مفهومَين محايدَين وواقعيَّين. لكن هذه العمليات البريئة ظاهريًا، آليات العالم بوصفة مَعرِضًا، هي التي عملت على إدخال ميتافيزيقا سياسية غامضة وحديثة.

● الكَلِم الثَّمَان

في أكتوبر عام ١٨٨١، وبعد شهر من قيام الزعيم الوطني أحمد عرابي بصف قواته أمام قصر الخديوي وإجباره للنظام على قبول مطالبه الشعبية، وبذلك عجل بالغزو البريطاني لاستعاده السلطة الخديوية، نُشر في القاهرة كتابٌ عنوانه «رسالة الكَلم الثَّمَان» ناقش الكتاب معنى ثماني كلمات «دائرة علَى ألسن شبَّان زماننا»، هي الأمة والوَطن والحَكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية. وقد كتبه حسين المرصفي، الأستاذ الكبير بدار العلوم، وهي المدرسة التي أُنشئت في القاهرة على غرار الـ(*e'cole normale* المدرسة القياسية) قبلها بعشر سنوات لتخريج المعلِّمين للمدارس الحكومية الجديدة، وكان المرصفي بين أبرز الدارسين والأساتذة الراسخين في زمنه. ومما له مغزى، أنه كان أيضًا أستاذَ محمود سامي باشا البارودي، الضابط والشاعرِ الذي سيصبح في العام التالي رئيسَ وزراء الحكومة الوطنية القصيرة العمر[١].

---

(١) حسين المرصفي، رسالة الكَلم الثَّمَان (١٨٨١). والكلمات الثَّمانية هي: الأمة، والوطن، والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسة، والحرية، والتربية، ولا توجد سوى إشارة عابرة عن الكتاب في العمل الأساسي حول ثورة عرابي: Alexander scholch, Agypten der Agyptern! Die politische und gesells-chaftiche krise der Jahre 1878-1882 in Agypten (Freiburg: Atlantis, 1972), P. 361; وقد=

كانت لغة وتفكير القيادة الوطنية منعكسةً في الكَلِم الثَّمَان. ولأن الكتاب تناول الأزمة السياسية على أنها أزمة كامنة في سوء استخدام وسوء فَهم الكلمات، كان موضوعُه الرئيسي هو الحاجةَ إلى سلطة وانضباط نظام قومي للتربية. كانت أفكار الأميرآلاي عرابي الخاصة حول «الأمور السياسية» قد تشكَّلت للمرة الأولى من قراءته حول التدريب العسكري للفرنسيين والطريقة التي كانوا بها «يُدرِّبون ويُنظِّمون» وفي بيانهم عام ١٨٨١ أعلن الزعماء الوطنيون أن هدف الشعب المصري هو «توسيع نطاق التهذيب». وقد حاولوا تحقيق ذلك عن طريق إقامة برلمان، وعن طريق الصحافة وانتشار التعليم المدرسي، مضيفين في البيان أن «هذا كله لا يحصل إلا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله»[١] هكذا لم يأت استيلاء الوطنيين على السلطة في أكتوبر عام ١٨٨١ باسم الثورة بقدر ما كان باسم «توسيع نطاق التهذيب» في مصر. وقد أخرج عرابي آلايه من الثكنات وأخذه بالقطار إلى مدينة الزقازيق بالدلتا، قرب مسقط رأسه. وهناك ألقى خطابًا يؤكد فيه «فائدة وضرورة التربية الجيدة» وفي أول عمل له كزعيم وطني وضع حجر الأساس لمدرسة جديدة[٢].

كان كتاب الكَلِم الثَّمَان متعاطفًا مع آلام الضباط الوطنيين، بينما يحذِّرهم من أن يحسبوا الانقسامَ وطنيةً. وكانت الكَلماتُ الثماني التي يناقشها هي القاموسَ الجديدَ للوطنية الحديثة، التي كان استخدامها المناسب يستلزم، بدوره، السلطةَ المتمركزةَ في المدرسة للدولة / الأمة. وقد أيَّد المرصفي انتشار التعليم المدرسي، حتى يستطيع المدرِّسون استخدام كلمات مثل «الوطنية» مرارًا في الفصل ويشرحون معناها المناسب. وينتقد الكتابُ الدارسين التقليديين لأنهم فقدوا سلطتهم الأخلاقية والسياسية، ويطالب بدلاً منهم بالسلطة الجديدة للمدرِّسين

= حُذفت الإشارة في الترجمة الإنجليزية. وحول المرصفي وعلاقته بالقوميين انظر. محمد عبد الجواد، الشيخ الحَسين بن أحمد المرصفي: الأستاذ الأول للعلوم الأدبية بدار العلوم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢) ص ٤٠-٤٢، وأحمد زكريا الشلق، رؤية في تحديث الفكر المصري: الشيخ حسين المرصفي وكتابة رسالة الكَلِم الثَّمَان (القاهرة: الهيئة المصرية العالم للكتاب، ١٩٨٤) صـ٥٢.

(1) Arabi's account of his life and of the events of 1881-1882 in Wilfred scawen Blunt, secret History of the English Occupation of Egypt, Being a personal Narrative of events, 2nd edition (London: T. Fisher Unwin, 1907). Appendix 1,p. 482; Programme of the National Party', in Blunt, Secret History, appendix 5, p. 558.

(2) Alexander scholch, Egypt for the Egyptians: The Socio- Political Crisis in Egypt 1878-1882, PP. 181-2.

على الطلبة في المدارس الحكومية. ورغم ذلك كان الكتاب لا يزال واقعًا في أحبولة مفاهيمَ أخرى، أقدم للسلطة. فعلى خلاف الزعامة الوطنية، كان المرصفي مُعارضًا لانتشار الطباعة بلا ضوابط في مصر. وجادل بالحاجة إلى هيئة من الدارسين المناسبي التربية تكون مسئولةً عن الكتب والصحف التي تُطبع، حتى تتحكَّم في إساءة استخدام الكتابة، وفي والحقيقة فإنه فهم الأزمة السياسية ككلٍّ في علاقتها بانهيار سلطة نصية كما يبدو واضحًا في انتشار الكلمات «على ألسُن شبان زماننا».

ورغم أن المرصفي، كدارس ذي نبوغ هائل، قد دخل حلبة السياسة التعليمية للدولة الجديدة، فإنه كان مازال ينتمي، من نواحٍ عديدة، إلى تقاليدَ مختلفة للدراسة والسلطة. كان رجلاً من قرية صغيرة في دلتا النيل، تعلَّم في الأزهر، وضريراً منذُ مولده. وقد كبر ضمن إطار تقاليدَ ثقافية وسياسية كانت المدينة فيها تعتمد على الريف ولا تسيطر عليه، مما أتاح لقرى معينة أن تقدِّم أجيالاً من دارسي القاهرة. وكانت هذه التقاليد ترفض استخدام المطبعة وتقبل العمى (كان ثمة مدرسة كاملة للعميان في الأزهر) لنفس السبب. هذا السبب هو أن الطريقة الوحيدة لقراءة نص والإبقاء على سلطته غير المؤكدة هي سماعه يقرأ بصوت عالٍ، جملةً جملةً، من قِبَل شخص يكون قد ملك ناصيته، وتكراره ومناقشته مع ذلك الأستاذ.

هذا النوع من التقاليد بشأن الكلمات ونَقلها يقف في تعارض ملحوظ مع انتشار التلغراف، والتقارير الصحفية، وحتى المراسلات الخاصة بين البريطانيين. كان المرصفي دارسًا بارزًا. وعلى خلاف كثير من دارسي الأزهر، كان منفتحًا لتجديدات المناهج الأوربية في التعليم المدرسي وقد اكتسب، رغم كفِّ بصره، القدرةَ على قراءة الفرنسية. ويبدو غريبًا، في لحظة أزمة سياسية عميقة، أن ينشغل كما فعل بأمور الاستخدام النحوي الملائم وخطر انتشار الكلمات الجديدة دون ضوابط. وتذكِّرنا استجابة المرصفي للأزمة باستجابة دارس مصري أسبق، هو الجبرتي، وهو يكتب في مناسبة سابقة كانت فيها البلاد تواجه خطر الاحتلال من جانب جيش أوروبي. فقد استَخدَمت القواتُ الفرنسيةُ التي غزت مصر عام ١٧٩٨، مثلما فعل البريطانيون عام ١٨٨٢، طرقًا مبتكرةً للاتصال. وقد لاحَظَت حكايةُ الجبرتي، كما ذكرت في الفصل الثاني، كيف أن الفرنسيين «لهم علامات وإشارات فيما بينهم يقفون عندها ولا يتعدَّون حدَّها». ومما له مغزًى أكبرُ على الطبيعة غير العادية للسلطة الأوروبية أن الفرنسيين جاءوا لفتح مصر ومعهم مطبعة.

بعد الرسوِّ في الإسكندرية والتقدُّم صوب القاهرة، كان أولَ عملٍ لنابليون هو إصدارُ بيان مطبوعٍ للشعب المصري، أعدَّه بالعربية المستشرقون الفرنسيون. وكانت استجابة الجبرتي لهذه التجديد الغريب، ردًا مشوقًا كتَبه في تقويمٍ حرَّرَه في قلب الأزمة. فقد بدأ تقريرَه بأن نقل نص البيان، وأتبعه بعدة صفحات وضع فيها قائمة مفصلة بأخطائه النحوية. وجملةً جملةً، أبرزَ التعبيرات العاميةَ. وأخطاءَ الهجاء، والحذفَ والتضاربات، وأوجهَ عدم الدقَّة في تركيب الجمل، وأخطاءَ الإعراب لدى المستشرقين الفرنسيين، راسمًا من هذه الاستعمالات الخاطئة صورةً لأوجه فساد السلطات الفرنسية وخداعها وسوء فهمها وجهلها(١).

إن التعارض بين رد الفعل النقدي والعدائي أحيانًا بين الدارسين المسلمين تجاه إدخال المطبعة العربية وبين التقنيات الكفء والمتقدمة للدارسين العسكريين الفرنسيين يُعَد أحيانًا تجسيدًا نموذجيًا لتاريخ علاقة مصر بالغرب الحديث. فقد تولى الاحتلالُ النابليوني إدخالَ أول مطبعة عربية إلى الشرق الأوسط، وقد ذكر غيابُ الطباعة طوال القرون السابقة تكرارًا على أنه دليل على تخلف وعزلة العالم العربي التي مزَّقها الاحتلال الفرنسي.

بعد رحيل الجنود الفرنسيين استطاعت الحكومة المصرية إنشاء مطبعتها الخاصة. لكنها كانت أساسًا جزءًا من العتاد العسكري الجديد للبلاد؛ فكل ما طُبِع خلال النصف الأول من القرن كان لأغراض التعليم العسكري(٢). والأفراد القلائل الذين حاولوا توسيع نطاق استخدام المطبعة خارج المشروع العسكري وجدوا أنفسهم نتيجة ذلك مُبعَدين عن وظائفهم ومَنفيِّين في بعض الأحيان. وبحلول خمسينيات القرن التاسعَ عشرَ، حين أُجبرت مصر على التخلِّي عن طموحاتها العسكرية، أُهملت المطبعة، وأُغلقت رسميًا عام ١٨٦١(٣). وبدأت الطباعة مرة أخرى بواسطة حكومة إسماعيل وعند حلولَ وقت الانتفاضة الوطنية كانت هناك صحافة دورية نشطة. لكن الحكومة كانت تحاول قمع أي مطبوعة لا تسيطر عليها، وكان دارسو المؤسسة أمثال المرصفي يعارضون الصحافة، ويَعزُون الأزمة السياسية جزئيًا إلى الانتشار المُفرط للمطبوعات(٤). وهكذا يبدو أن قصة الطباعة في مصر تؤكد تخلف العالم العربي، ومقاومته المستمرة للتغيير، والعداء اللاعقلي للدارسين المسلمين تجاه العلوم الحديثة.

(١) عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، صـ٧-١٧.

(٢) أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٣) صـ٤٤٦-٤٧٩.

(3) Radwan, Ta'rikh, PP. 56-74.

(4) Marsafi, al - Kalim al - thaman , PP. 31-2.

إلا أنني أعتقد أن هذه المواقف تجاه تكنولوجيا الطباعة، بدلاً من أن تكون دليلاً على تخلف الآخرين، ومقاومتهم، ولا عقليتهم، يمكن أن ترشدنا إلى فهم بعض أفكارنا الغريبة بشأن طبيعة الكتابة، والافتراضات السياسية التي تناظرها هذه الأفكار. ومن أجل فهم هذه الأفكار، فإنني سأفحص غرض المرصفي من كتابه الكَلِم الثَّمَان.

● **ابن خلدون**

أول مفتاح لفهم غرض المرصفي هو عنوان الكتاب. فـ«الكَلِم الثَّمَان» تشير إلى المصطلحات السياسية موضوع النقاش، لكنها تشير أيضًا، فيما أعتقد إلى السِّياسة ذاتها والإشارة تحيل إلى ما يسمى «بحلقة الكَلِم الثَّمَان» الموجودة في أدب الحكمة الشعبية وفي الكتابات السياسية، والتي دائمًا ما تعبر عن طبيعة ما هو سياسي. وعلى سبيل المثال، فإن كتاب رفاعة الطهطاوي الأساسي «مناهج الألباب المصرية»، الذي ظهر قبل نَصِّ المرصفي بعقد من الزمن، بدأ تفسيره لمعنى السياسة بذكر حلقة الكَلِم الثَّمَان[1]. وكانت الكلماتُ الثمانيةُ تحدِّد الأجزاءَ الثمانيةَ لعالم السياسة، ومعنى كل واحدة يُفَسَّر بالنسبة للتالية لها «.. المُلكُ نظام يَعضُدُه الجُند، الجُند أعوان يكفُلُهم المال، المال رزقٌ يجمعه الرعية» وهكذا دواليك، بحيث إن هذه الكلمات «فهذه ثمان كلمات حُكميَّة سياسية» ارتبط بعضُها ببعض وارتدَّت أعجازُها على صدورها واتصلت في دائرة لَا يتعيَّن طَرَفُها»[2]. وتستمدُّ الدائرةُ أصولَها من نفس أصول المُثَمَّن الذهبي عند أرسطوطاليس، لكن المصدر الذي أخذ عنه الدارسون العرب في القرن التاسعَ عشرَ كان عمل كاتب القرن الرابعَ عشرَ الشمال أفريقي العظيم، ابن خلدون. كانت دارسة ابن خلدون ذات السبعة المجلدات عن ظروف وتاريخ الحياة الاجتماعية الإنسانية، وعنوانها كتاب «العبَر» كانت واحدًا من الأعمال الأُولَى التي أخرجتها المطبعة التي أُقيمَت في القاهرة في ستينيات القرن التاسعَ عشرَ، في أول نسخة

(١) الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، صـ ٢٣١. وحول نفس الموضوع في الكتابة السياسية العثمانية. أنظر:

Serif Mardin, The Genesis of Toung ottoman thought (Princeton: Princeton university press, 1962), pp. 95-102.

(2) Abd al-rahman Ibn Khaldun, mugaddimat Ibn khaldun, ed E. Quatremere, 1:65; cf. the Mugaddimah: An Introduction to History, trans. Franz Rosenthal. 1:81-82.

مطبوعة للنص الكامل[١]. وقُرئ الكتاب في دوائر الطلبة المثقفين، وخصوصًا في مدرسة إعداد المعلمين الجديد[*]، التي مَن المعروف أن المرصفي ومحمد عبده قد حاضرا فيها عن ابن خلدون[٢].

والجزء الأول من عمل ابن خلدون المعروف باسم «المُقَدِّمة» يعرض نظريته عن المجتمع الإنساني، وهي نظرية تخاطب أزمة عصره السياسية. وقد كتب يقول إن مجمل نظرية حكم المجتمعات الإنسانية، إذا دُرست بما تستحق من الاهتمام، يمكن فهمُها باعتبارها تعليقًا على حلقة من ثماني كلمات[٣]. والمرصفي، الذي ربما أخذ عنوانه من هذه الفقرة، كان يكتب بدوره في فترة أزمة سياسية. وأزمة عصر المرصفي فريدة، بالطبع، من وجوه عديدة لأن تغلغل رأس المال الأوروبي قد أحدث ضعفًا غير مسبوق في نوع السلطة المحلية التي أودُّ وصف طبيعتها. لكن ضروب ضعف هذه السلطات كانت شيئًا خلقيًا، وقد وجدتُ أفضلَ وصف لها في عمل ابن خلدون. أنها، كما اقترحتُ في فصل سابق، سلطة تبدو، بالدرجة الأولى، وكأنها غير مستقرة بطبيعتها. تميل إلى التوسع باستمرار، حتى تبدأ قوتها في التدهور فتتجه إلى التفتُّت وتصير مبعثرة. وفعَّاليتها تتناقص دومًا باتجاه أطرافها، فتكون أضعفَ في الريف منها في المدينة، وأضعفُ ما تكون حيثما يلاصق الريفُ الصحراءَ. قوتها تكمن في قوة من يحكمون، وقوة الروابط بينهم. وهي، ثانيًا، سلطة تَستَخدم بشكل خاص التفسيرَ المرجعيَّ للنصوص. كذلك تُحَمِّل النصوص سلطتَها الخاصةَ، وَهي سلطة تعكس سلطة السياسة في ميلها للتدهور بمرور الزمن لتصير فاسدة. بهذا المعنى يكون الحفاظ على سلطة الكتابة وتفسيرها الملائمين موردًا أساسيًا للسلطة السياسة. وقد خاطب ابن خلدون أزمة وسقوط السلطة السياسية، بدورها، في علاقاتها بتدهور وسقوط العلم.

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبَر وديوان المبتدأ والخبر. إعداد نصر الهوريني، ٧ أجزاء (بولاق، ١٨٦٧). وقد ظهر المجلد الأول (المقدمةَ) والمجلدان السادس والسابع (ويتناولان تاريخ شمال إفريقيا) قبل ذلك بقليل، في طبعات نشرها الدارسون الفرنسيون في خمسينات القرن التاسعَ عشرَ. وقد تُرجم الجزء الأول إلى الإنجليزية في ثلاثة أجزاء وقام بالترجمة فرانز روزنتال Franz Rosenthal بعنوان: The Muqaddimah: An Introduction to history.

(*) (دار العلوم-م).

(٢) أحمد تيمور تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابعَ عشرَ (القاهرة: مطبعة عبدالحميد أحمد حنفي، ١٩٤٠)، صـ١٤٨؛ Anouar Abdel - Malek, Ideologie et renaissance nation- ale: L'Egypte modern, P. 399.

(3) Ibn Khaldun, Mugaddimat Ibn Khaldun, ed. E. Quatremenre,

كان عمل حياة المرصفي الثقافي جزءًا من محاولة، من جانبه ومن جانب غيره من الدارسين المتعلمين في الأزهر الذين دخلوا حلبة السياسة التعليمية، لتوسيع وتأمين السلطة في مصر عن طريق إحياء التعليم. وقد أراد أن ينسج على منوال مناقشة ابن خلدون للعلم، في محاولة لإحياء سلطة سياسية تعمل من خلال الأدب، على أساس المفاهيم القائمة لسلطة المؤلف وسلطة الكتابة. وقد فَشلَت المحاولة لكن الفشل يمكن أن يلقي الضوء على التحول الذي سيحدث في طبيعة الكتابة والسياسة.

كان موضوع محاضرات المرصفي هو فن الكتابة السليمة بالعربية، ويتم تعليمه من خلال دراسة أدبها. وقد أحيا المرصفي من خلال محاضراته دراسة مجال ضخم من الأدب العربي، في الشعر والنثر، كان قد أهمله أغلب دارسي الأزهر، المتخندقين ثقافيًا خلال فورات الخمسين سنة السابقة أو أكثر(١). وكان غرض هذا التعليم سياسيًا بأكثر مما قد يوحي لفظ «الأدب» كان مجمل الآداب التي يجري تعليمها يعرف باسم «الأدب» وهي كلمة تعني حسن السلوك لنظام اجتماعي مهدد وقيم طبقة اجتماعية في خطر. كان هناك أدب يناسب كل وضع اجتماعي، يؤسِّس في الحياة منظومات السلوك الصحيح(٢). ودراسة الآداب الرفيعة تؤسس بين الناس حدود ومنظومات الفعل الاجتماعي. وقد أوضح المرصفي أن «حقيقة الأدب أن يَعرفَ كلٌّ حدودَ وظيفته، فلا يتخطاها»(٣).

وفي الكَلِم الثَّمَان أوضَحت الطريقةُ التي يُخدَم بها التعليمُ المناسبُ سلطةً سياسيةً فقد قُدِّمَ الكتاب بوصفه شرحًا، أي، يفسر المعاني الحقيقية لكلمات هامة(٤). وزَخَر الكتاب بالإشارة إلى

---

(١) كتب تلامذته مراجع الأدب العربي والنحو العربي لاستخدامها في المدارس الحكومية لفترة تزيد على جيل؛ وقد جمعت محاضراته في عملين متعددي الأجزاء، «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية»، جزءان (القاهرة: الجزء الأول، مطبعة المدارس الملكية، ١٨٧٢-١٨٧٥؛ والجزء الثاني مطبعة وادي النيل، ١٨٧٥-). «ودليل المسترشد في فن الإنشاء» (القاهرة ١٨٩٠): الذي اكتملت مخطوطته قبل وفاة المؤلف مباشرة لكنها لم تنشر أبدًا؛ وكان يمثل تأثيرًا هامًا على الكاتب عبد الله فكري (الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمعارف ومندوبًا إلى مؤتمر استوكهولم الاستشراقي) وعلى عدد من الشعراء المصريين المهمين، بما في ذلك البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم (عبدالجواد، المرصفي، صـ ٨٢-٩١- ١١٧-١١٩؛ ١٨٧٩؛ و Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, (Leiden, (1943-49), supplement2: 727

(2) See Charles pellat, Variations sur le theme de l'adab; in his Etudes sur I'histoire socio-culturelle de I'Islam (London: Variorum Reprints, 1976).

(3) Marsafi, al-Kalim al-thaman, P. 173

(4) Ibid. P.3.

المصادر المكتوبة التي طَعَّم بنصوصها نصَّه، بما في ذلك القرآن، والسنة النبوية، ومجال واسع من الأعمال في الأدب العربي، فضلاً عن عدد من الأعمال بالفرنسية[1]. لكن هذه لم تكن كلَّ مصادره. فقد كان النشاط السياسي ذاته نوعًا من القراءة، أي تفسير لكلمات تتطلب النقد.

فَهِم المرصفي الأزمة السياسية التي كان يكتب في ظلِّها على أنها محاولة الجماعات الخاصة إضفاءَ معنًى معين على الكلمات، من قبيل الحرية والظلم[2]. وهذه الكلمات عرضة لإساءة الاستخدام وإساءة التفسير. فمثل كل الكلمات، تحمل هذه الكلمات خطر وضعها خارج سياقها، أو التحدث بها بالمعنى الخطأ لها. وهذا الاحتمال اللفظي لم يكن نتيجةً للاضطراب السياسي السائد، بل عرضًا وطبيعةً للأزمة. لم يكن في هذا التناول فصل تحليلي بين الكتابة والسياسة، أو بين النظرية والممارسة. فكل فعل سياسي هو تفسير لكلمات، وبالتالي فعل نصِّي، قراءة. وهدف المرصفي نفسه هو تفسير «حقيقة» كل كلمة يتناولها، ومن هناك يرى ذلك المعنى وقد «تحقق» في الحياة السياسية. لم يكن العالم السياسي شيئًا جامدًا مستقلًا عن اللغة المكتوبة. ولم تكن الكلماتُ بطاقات تكتفي بأن تُسمِّي وتمثل الأفكار أو الموضوعات السياسية، بل تفسيرات يجب جعل قوتها واقعية[3]. ومن هناك استجاب الدارس لأزمة سياسية / اجتماعية مثل أحداث عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ بمحاولات لتقديم التفسير المناسب للكلمات.

باستخدام وإعادة صياغة كتابات ابن خلدون، قال المرصفي إن هناك ـــ بالإضافة إلى المعرفة المتخصصة المطلوبة في كل مهنة ـــ كيانًا عامًا من المفاهيم (عموم المعارف) يجب أن يكتسبها كل فرد وبقاء ورفاهية المجتمع يعتمدان على اكتساب تلك المفاهيم المشتركة، لأن هذه المفاهيم هي التي تمكِّن المجموعات الاجتماعية المنفصلة من التفكير في عملها، في تنوعه واختلافه، بوصفه عمل شخص واحد وبدون هذا المفهوم لكيان واحد والذي يُنتجُه الفهمُ المشترك، فإن «تحقق الأمة» ليس ممكنًا والتعليم المشترك ـــ الذي يتقاسمه كل أعضاء المجتمع ـــ هو ما يميِّز المجتمع عن غيره من المجموعات. والخطر الذي يتهدد مجتمعًا أخفقَ في تحقيق هذه المعاني المشتركة هو انقسامُ المجتمع إلى فصائلَ منفصلةٍ وسقوطُه في أيدي الأجانب[4]. وقد كتب المرصفي ليحارب هذه الأزمة.

---

(1) ibid. pp. 85-6, 131, for references to French authors.

(2) Ibid. pp. 75.79/

(3) ibid. pp. 16, 112, 116, 126, 140

(4) ibid. 112-3, 142, 122-3.

واختتم المرصفي الكَلِم الثَّمَان بالقول بأن على أذكياء المجتمع أن يُولُوا اهتمامًا خاصًا، في إطار هذه المفاهيم، إلى مَا يتعلق بَعادات وأخلاق الشعب، وأن يميِّزوا بين الصالح والطالح؛ وأن على من يعلِّمون في المدارس الجديدة أن يجعلوا الوطنية أساس تعليمهم. ويجب تعليم كل مهنة وحرفه بطريقة تُبرز أن العمل في خدمة المجتمع وباستخدام كلمة «الوطنية» تكرارًا في الفصل، يمكن أن يساعد المعلِّمون على تحقق معناها، وبذلك يستحق المجتمع اسمه ويصبح واحدًا في الواقع[1].

لنوجز، إذن، ما قلناه حتى الآن فإن كتاب المرصفي كان متشككًا في الطباعة وموحيًا بابن خلدون. فقد كانت الطباعة جزءًا من المشكلة العامة «لانتشار الكلمات» التي بدا أنها، على نحو ما، هي طبيعة الأمة السياسية. وبالتالي فإن السلطة السياسية مرتبطة بسلطة الكتابة. وتوسيع مدى سلطة الكتابة، من خلال المدارس والتعليم المناسب، هو الوسيلة لاستعادة وتأمين السلطة السياسية. وأهمية ابن خلدون هي أنه خاطب المشكلة العامة للسلطة في علاقتها بمشكلة سلطة المؤلف. ولفهم طبيعة هذا الارتباط، أودُّ أن أقارن ما كانت تعنيه الكتابة، بالنسبة لابن خلدون ولحسين المرصفي، بفهمنا نحن لكيفية عمل الكلمات. وسأبدأ بافتراضات معينة غريبة نفترضها نحن.

● هذا الوجود المعنوي

خلال أحداث ١٨٨٠ - ١٨٨٢، دعا أحمد عرابي وزملاؤه الزعماءُ السياسيون أنفسَهم «الحزبَ الوطنيّ». وكلمة حزب تعني حزبًا *party* أو فصيلاً *Faction*، وتعني العبارةُ الفصيلَ الوطني أو القومي، أي أولئك الذين يعارضون سيطرة الأجانب على مصر، سواء أكانوا أتراكًا أم أوروبيين. وفي الكَلِم الثَّمَان حذَّر حسين المرصفي القوميين من تقسيم البلاد إلى جماعات عرقية متعادية، ولهذا الغرضَ استحضر بعض التداعيات الأبعد مدًى لكلمة حزب فبالمقارنة مع الوحدة المتضمَّنة في كلمة أمة، جادل المرصفي بأن كلمة حزب تتضمن المصلحة الذاتية والتحزب. وقد أبرزت تداعيات الكلمة الحطَّ من شأن سياسة مَن يستخدمونها. كان الجدال السياسي دائمًا يعمل من خلال سلطة اللغة هذه، باحثًا عن التنَاقضات في الكلمات أو قابليتها لاستحضار معان بديلة. أما عرابي فقد حاول بدوره أن يُبرز تداعيات مختلفةً للكلمة. فحينما قُدِّم للمحاكمة بعَد هزيمة الحركة القومية على يد البريطانيينَ، سأله المحققون لماذا سمح

---

(1) ibid. pp. 125-8.

لنفسه بأن يُدعَى «رئيس الحزب الوطني» فأجاب عرابي بأن ربط كلمة حزب بالتمزقات المنتشرة خلال البلاد بأسرها، وسيطرة الأجانب عليها. وأبرز أن سكان مصر ينقسمون إلى أجناس منفصلة يمكن اعتبار كل واحد منها حزبًا، هكذا جادل أمام القضاة، مضيفًا «أن أهل البلاد حزب قائم بذاته يطلق عليه لفظ فلاحين إذلالاً لهم»[(١)].

وقد أُوردت عبارات عرابي في المحكمة في المقابل عن مصطلح «حزب» الجديد في دائرة معارف الإسلام *Encyclopedia Islam*، بمقارنة شديدة لاختلاف اللغة، وهدف المقال أن يبيِّن كيف أن كلمة حزب «رغم أن ذلك حدث ببطء وبلا وعي وبتردد قد صارت مستقرة في المعنى وتعني حزبًا سياسيًا بصورة غير ملتبسة» وزعم عرابي القوى بأن كلًّا من الزعامة القومية والشعب المصري يمكن تسميتها حزبًا، يستشهد به لتوضيح ما سُمِّي بالمعنى «الملتبس والمتقلب» أصلاً للمصطلح. فالكلمة «تمثَّل في ذهن عرابي معنيَين مختلفَين» كما تقول دائرة المعارف «لا يمكنه التمييز بينهما بوضوح» عندئذ يمكن توضيح أن الكلمة، منذ زمن عرابي، قد تطورت، «رغم أن ذلك حدث ببطء» من هذه الحالة من التشويش إلى حالة من الوضوح، أي أنها بعبارة أخرى حركة من التردد إلى اليقين، ومن الالتباس إلى عدم الالتباس، ومن عدم الاستقرار إلى الاستقرار، ومن اللاوعي، كما يتضمن الأمر، إلى الوعي السياسي. وعلاوة على ذلك فإن الحركة التي اقتفت دائرةُ المعارف آثارَها ليست مجرد تاريخ كلمة. فالكلمة تمثل معنًى في أذهان الناس، وتطورها يعد تمثيلاً للتطور التدريجي لهذا المعنى لهذا الذهن السياسي[(٢)].

هناك افتراضان يحكمان هذا التناول للغة، لا يشارك في أي منها تمامًا لا عرابي ولا معاصروه. الافتراض الأول هو أن الطبيعة الحقَّة للكلمات هي أن تكون واضحة ومستقرة، وأحادية المعنى، وأن الكلمة تكتسب قوة أكبر بقدر ما تقترب أكثر من هذا المثال. والافتراض الثاني هو أن دراسة الكلمات هي دراسة لتجريد أوسعَ نطاقًا تمثله الكلمات، هو العقل السياسي أو الثقافة أو المعنى لمجتمع معين.

---

(١) سليم خليل النقاش، مصر للمصريين، ٩ أجزاء (الأجزاء من الأول إلى الثالث لم تنشر أبدًا الإسكندرية: مطبعة جريدة المحروسة، ١٨٨٤) ٧: ٤٤٥.

(2) Encyclopaedia of Islam, new edition, 5 vols, prepared by a number of leading orientalists (Leiden: E.J. Brill, London: Luzac and Co., 1960), 3:514.

• إشارات التلغراف

في وقت محاكمة عرابي، بينما بلدان الشمال قد شرعت في التوسع العالمي لسلطتها الاستعمارية، كانت النظريات الأوروبية عن اللغة تسودها أعمال من أصبحوا يُعرفون باسم «المستشرقين». فالدراسة الشرقية، كما أوضح إدوارد سعيد، ازدادت أهمية في القرن التاسعَ عشرَ مع نمو المصلحة الأوروبية التجارية والاستعمارية في الشرق. وإذا كان توسع الاستشراق راجعًا إلى وضع الشرق ضمن نطاق قوة أوروبا التوسعية، فإن قوة الدراسات الشرقية كان راجعًا كذلك إلى وضع هذا الشرق ضمن منظومات المعرفة الأوروبية في القرن التاسعَ عشرَ. فمنذ نهاية القرن السابق عليه، أصبحت معرفة شيء ما تتضمن معرفة مراحل تطوره الداخلي، أو «تاريخه» بالمعنى الجديد لهذه الكلمة. وكان ذلك صحيحًا بالنسبة للعلمَين الرائدَين في القرن التاسعَ عشرَ، الجيولوجيا التي كشفت تاريخ حياة الأرض، والبيولَوجيا التي كشفت تاريخ حياة الكائن العضوي الفيزيائي[(١)]. كان صحيحًا بنفس القدر بالنسبة لتاريخ حياة العقل الإنساني، الذي كان تكشُّفُه هو الاستشراقَ «سواء في الطبقات المتحجرة للأدب العتيق أو في التنوع اللانهائي للغات واللهجات الحية»، زعم البروفيسور ماكس مولر *Max Muller* من جامعة أوكسفورد، مستدعيًا التوازيات بين الجيولوجيا والبيولوجيا في عبارة واحدة «... فإننا نجمع، ونرتب، ونصنف كل حقائق اللغة التي في متناولنا»[(٢)].

بصورة مشابهة لجسمه الفيزيائي ولكوكبه، كان على الإنسان ذاته الآن أن يفهم لا في سيكولوجيا قدرته العقلية، بل في تطور هذا الشيء الجديد نسبيًا والخاص، ألا وهو العقل الإنساني. كان الاستشراق هو «العلم التجريبي» بتعبير المستشرق الفرنسي العظيم أرنست رينان *Ernest Renan*، الذي سيكشف «علم أجنة العقل الإنساني»[(٣)]. وكانت اللغات الشرقية تقدم المادة الخام لهذا العلم التجريبي «للعقل» ومثلما منحت الجيولوجيا معنى يمكن قراءته في طبقات الصخر، ومنحت البيولوجيا معنى في الحفرية، فإن الاستشراق قد أعطي الكلمات العتيقة، المُكتَشَفة في النصوص الشرقية، وسيلة لـ «فهم، لا يمكن الحصول عليه بطريقة أخرى، للحالة التي تتقدم تدريجيًا للعقل وحالة المعرفة» للجنس البشري[(٤)].

(1) Michel Foucalult, The Order of things: An a RCHAEOLOGY OF THE Human Scienc.

(2) Friedrich Max Muller, Lectures on the Science of Language (London: Long- man, 1861).

(3) Ernest Renan, Del'origine du langage' (1848), Oeuvres compl'etes, 8:11.

(4) William Dwight whitney, Oriental and Linguistic Studies, 2 vols (New york: Scribner, Armstrong and Co. 1873)

كان يجب التفكير في اللغة على أنها كيان عضوي، يتطور وفقًا لقوانين طبيعية تاريخية، خلاياه تتكون من كلمات مفردة، كل واحدة منها كيان مكتمل المعنى يمكن الرجوع بتطوره إلى أصل اشتقاقي. ويمكن اكتشاف مراحل تطور العقل الإنساني في ميلاد الكلمات المفردة وفي مراحل نموها. «كل كلمة جديدة»، كما ذُكر في افتتاح المؤتمر الدولي التاسع للمستشرقين، «تمثّل فعلاً حدثًا بالغ اللحظية في تطور جنسنا»[(١)].

كانت دراسةُ اللغات ذاتَ فائدة سياسية خاصة لأن الاستشراق يشارك علم القرن التاسعَ عشرَ في سمة أخرى. فقد أدخل من المذاهب الشقيقة الفكرة الأساسية في «البقاء» ومثل الحفريات بالنسبة لعالم البيولوجيا، كانت اللغات غير الأوروبية المعاصرة بقايا، أو مخلفات من ماضي العقل البشري (أي الأوروبي)، حُفظت في مراحلَ مختلفةٍ من «التخلُّف» وكما أوضح رينان فإن.

La marche de I'humanite' n'est pas simulatane'e dans toutes ses partiesì Telle est" I'ine' galite' de son mouvement que " l'on peut, a' chaque moment, retrouver dans les differentes contre'es habite'es par' I'homme les ages divers que nous voyons e'chelonnes dans son histoire[(٢)(*)]

لم يكن الاستشراق مجرد دراسة باطنية ما للغات الغريبة، حولتها المتطلبات السياسية للتوسع الجغرافي الأوروبي إلى مؤسسة مزدهرة للسلطة الاستعمارية. بل كانت هي الدراسة الحقة للبشرية.

كان يجب دراسة الإنسان في علاقته بتاريخ العقل البشري؛ أما مراحل تطور هذا الموضوع العقلي الجديد، التي ضاعت في العمق السحيق للماضي، فقد أتاحها الاستشراق مقيَّدةً في الزمن، وموزعةً عبر الفضاء الجغرافي الاستعماري.

إلا أن الاستشراق كانت له أوجه قصوره الخاصة، مثلة مثل كل علم الإنسان في القرن

---

(1) I nternational Congress of Orientalists, Transactions of the Ninth Congress, London, 5-12 September 1892, ed. E. Delmar Morgan, 1:9.

(2) Renan, Oeuvres compl'etes, 8:37-38.

(*) إن مسيرة الإنسانية ليست متزامنة في كل أجزائها. . ويبلغ من التفاوت في حركتها أن المرء يستطيع، في كل لحظة، أن يصادف في مختلف الأنحاء التي يسكنها الإنسان العصور المختلفة التي نراها درجات في سُلم تاريخه». بالفرنسية في الأصل.

التاسعَ عشرَ، فقد مكَّن المديرين الاستعماريين من الحديث عن «العقل الشرقي» ومن إدراك «تخلفه». لكن لما كانت نظريته في اللغة تَعتبر الكلمات المفردةَ اكتمالات للمعنى في ذاتها، فقد مالت الدراسات الشرقية إلى أن تظل واقعة تحت وطأة التحليل التفصيلي للنصوص. وما كان مطلوبًا هو طريقة للتحرك بسرعة من هذه الخصائص التجريبية إلى تجريد للعقلية الشرقية. ما كان مطلوبًا كان أن تُعتَبر الكلماتُ ذاتها موضوعات غيرَ ماديّة، مجرد أمارات، وأن يصبح العقل الشرقي بنية أكثر امتلاء وأكثر ماديّة، حتى يفسحَ المكان لتجريد جديد، مثل «الثقافة» أو «المجتمع» الشرقيين (أو الشرق أوسطيين).

وتم الإنجاز باعتبار اللغة فجأة، على أنها في جوهرها ليست كيانًا عضويًا بل وسيلة اتصال. وهذا الانجاز جاء مع مجيء الاتصال الحديث ففي ١٨٩٥، عرض ماركوني لأول مرة النظام الذي ابتكره للإرسال التلغرافي اللاسلكي. ومثل هذه الأحداث جعلت من الممكن شرح طبيعة اللغة بطريقة جديدة. أُعلن الآن أن «الكلمات هي علامات وليس لها وجود آخر خلاف إشارات التلغراف اللاسلكي». وقد أعلن ميشيل بريال ***Michel Breal*** هذا الزعم عام ١٨٩٧، وبريال هو أستاذ النحو المقارن بالكوليج دو فرانس[1]. ودلالة الجدال بأن الكلمات مجرد علامات، فارغة في ذاتها مثل إشارات التلغراف، كانت تكمن في أن اللغة يمكن التفكير فيها الآن باعتبارها شيئًا أكثر من ذلك، شيئًا يوجد منفصلاً عن الكلمات ذاتها. فمعنى اللغة لا يوجد في اكتمال الكلمات، التي هي علامات تعسفية لا تعني شيئًا في ذاتها، بل يوجد خارجها «كبنية» سيمانطيقية. وقد أوضح بريال الوجود المنفصل لهذه البنية بمقارنة تأثير الكلمات بتأثير «الوهم» الذي يحدث عندما ننظر إلى لوحات التصوير في مَعرض. وقد كتب: «إننا حين نقف أمام لوحة، تظن أعيننا أنها تدرك تضادات الضوء والظل، على قماش يضيئه كلّه نفسُ الضوء. إنها ترى أعماقًا حيث يقع كل شيء في نفس المستوى. فإذا اقتربنا بضع خطوات، تكسرت واختفت الخطوط التي حسبنا أننا تبيّنّاها، ومكان الأشياء المختلفة الإضاءة لا نجد سوى طبقات من اللون متجمدةً على القماش آثار من نقاط زاهية التلوين،

(1) Michel Br'cal, Essai de s'emantique; Science des significations (Paris: Hachette, 1899; 1st ed. 1897) p. 279; cf. hans Aarsleff, Br'eal vs Schleicher: Reorientations in linguistics in the latter half of the nineteenth century' in From Locke to Saussure: Essays on the Study of Language and Intellectual History (Minneapolis: University of Minnesota press, 1982), p. 296.

تلاصق إحداها الأخرى لكنها غير متصلة ببعضها. لكننا فور أن نتراجع ثانية إلى الخلف نجد أن أبصارنا، بحكم العادة الطويلة، تمزج الألوان وتوزِّع الضوء، وتجمع الملامح من جديد وتعيد تركيب عمل الفنان»(١).

لم تكن الكلمات كيانًا عضويًا حيًا بل أجزاء من تمثيل. وبوضعها معًا تشكل صورة شيء، رسالة شفرية، تلغرافًا. إنها مكونة من علامات بلا معنى في ذاتها؛ وإذا فحصناها عن قرب، تذوب في نطاق وعلاوة على ذلك فإنها بتكوينها تمثيلاً، تفترض مسبقًا وجود ذات تقف منفصلة مثل مشاهد لوحة تصوير أو زائر مَعرض: «كل شيء يبدأ منه ويتوجه إليه»(٢) وهدف التمثيل اللغوي هو هذا الاتصال بين الذوات المتكلِّمة. من ثمَّ، فإن المعنى اللغوي لا يوجد في داخل مادة الكلمات ذاتها ولا داخل عقل الفرد ببساطة. بل يوجد خارج الاثنين، بوصفه «بنية» ذات «وجود معنوي». (وقد حدث اكتشاف بريال لـ«بنية» اللغوية في نفس أعوام اكتشاف دوركهايم للبنية الاجتماعية، التي قامت كما رأينا، على أساس إجراء نفس الفصل بين المجال المادِّي للتمثيلات ومجال معنوي تمثِّله) (٣). كتب بريال «لا يقلِّل من أهمية اللغة أن نمنحها هذا الوجود المعنوي فقط؛ بل إنه على العكس، يعني وضعَها مع الأشياء التي تحتلُّ موضع الصدارة وتمارس أعظم نفوذ في العالم، لأن هذه الموجودات المعنوية ـ الأديان والقوانين والعادات ـ هي ما يضفي شكلاً على الحياة الإنسانية»(٤).

كان يجب اعتبار اللغة جزءًا من مجال معنوي، مثل القانون والعادة (وفيما بعد، الثقافة أو البنية الاجتماعية)، وهو المجال الذي يضفي «شكلاً» على حياة الناس العادية. وهذا الشكل هو شيء فريد بالنسبة لشعب بعينه. هذه الأشكال والبنيات لم تكن مرئية بالنسبة لمستشرقي القرن التاسعَ عشرَ، الذين جادلوا خطأً بأن العالم الإدراكي (المعنوي) لشعب ما كان محدودًا بالكلمات التي يجدها المرء في قاموسه. أما بالنسبة لبريال فكان ثمة شيء أكثر من ذلك. «إننا

(1) Michel Br'eal, Les id'ess latentes du langage' (1868), in M'elanges de mythologie et de linguistioque (Paris: Hachette, 1877), p. 321; cf. arsleff, Br'eal vs Schleicher' pp. 306-7.

(2) Michel Br'eal, De la forme et function des motsin M'elanges , p. 249, cited Aarsleff, Br'eal vs Schleicher; p. 297.

(3) Cf Aarsleff, Br'eal vs Schleicher;

(4) Michel Br'eal, La langage et les nationalit'es; Revue des deux mondes 108 December 1891); 619, cited Aarsleff, Br'eal vs Schleicher' p. 384.

بعدم السماح لشعب ما بأن تكون له أفكار غير تلك التي تتمثل صوريًا، نخاطر بإهمال ما قد يكون الشيءَ الأشدَّ حيويةً وأصالةً في ذكائه. . ولا يكفي على الإطلاق أن نحلِّل نحوه ونتتبع الكلمات إلى قيَمها الاشتقاقية لكي نعطي تقريراً عن بنية لغة ما. فلا بد للمرء أن يدخل إلى طريقة هذا الشَعب في التفكير والإحساس»(1). فور أن أصبحت الكلمات تُدرك بوصفها مجردَ أدوات للاتصال، مجرد تمثيلات لشيء، أصبح من الممكن التحرك من الكلمات ذاتها إلى هذا الشيء، هذا التجريد الأشمل، أي عقلية شعب ما، طريقته في التفكير والإحساس، ثقافته.

لنوجز مرة أخرى، أقول إن كلمات لغة ما في أوروبا أصبحت لا تُعدُّ معانيَ في ذاتها بل مفاتيح فيزيائية لنوع من التجريد الميتافيزيقي، هو العقل أو العقلية. ومنذ نهاية القرن التاسعَ عشرَ، تشكَّلت هذه العقلية في كيان قائم بذاته، يوجد منفصلاً عن الأفراد وعن الكلمات، كمجال مجرد للمعنى يُضفي النظامَ على الحياة العادية وهذه النظرة للغة لم تنشأ في فراغ. فكما رأينا في حالة حجج دور كهايم حول الوجود الميتافيزيقي «للمجتمع» نجد في العالم «بوصفه مَعرِضًا» أن كل شيء يصادفه الإنسان أصبح يُنظَّم ويُدرك وكأنه مجرد التمثيل الفيزيائي لشيء مجرد والسياسة نفسها في عصرها الاستعماري، كما اقترحت في مستهل هذا الفصل، كانت قد بدأت تتقدم أكثر فأكثر من طريق التنسيق المتصل للتمثيلات التي تنتج هذا المجال الظاهري للمعنى. والمقابل، فإن حسين المرصفي، المُعارض حتى لانتشار الطباعة، لم يكن يشارك في الاعتقاد بمثل هذا المجال الميتافيزيقي. وبالتالي، فإن طرق استخدامه للكلمات، لم تكن تحمل نفس الافتراضات بشأن طبيعة المعنى. وهذه الطرق والافتراضات هي التي سأتحول إليها الآن.

• اللغة العادية

ربما كان أولَ ما يلاحظه المرء في عمل مثل الكَلم الثَّمان أنه غير «منظَّم» على نحو ما نتوقع من نصٍّ وخصوصًا من نصٍّ يخاطب أزمة سياسيةً ملحَّة فليس في الكتاب قائمة محتويات - الأبنية قد تبدو قائمة خارج النص نفسه- وهو لا يقدمَ تعريفات مرجعيةً مباشرةً للكلمات التي يتناولها، بل يبدو أنه يتحول خلال كل التداعيات التي تثيرها كل كلمة، بطريقة تبدو غير منظمة وحتى سيئة الكتابة. وطبقًا لما يقوله أحدُ تحليلات النص فإن «طرح الأفكار يُعرَض فيما

(1) Br'eal, Les id ees latentes, in M'elanges, P. 322.

يبدو وكأنه فوضى إرادية، بنكَات مسلية، وبمقارنات بين عادات البشر وعادات الحيوانات، بآيات من القرآن وبأحاديث، وبقصص مستمدة من الخبرة الشخصية للمؤلف» ويبحث التحليل عن العلاج الضروري لهذه المشكلة، موضحًا أنه «لن يتبع الترتيب المزاجي للعمل، بل سيضع الموضوعات الأساسيةَ منظمة»(١).

إن مشكلة فهم ما يبدو وكأنه «ترتيب مزاجي» أو حتى «فوضى إرادية» تظهر في كل أبحاث الدراسات الشرق أوسطية. ولا نصادفها في دراسة النصوص فقط، بل كذلك وكما رأينا في طريقة بناء المدن أو في غياب المؤسسات السياسية. ومرة أخرى أودُّ أن أستكشف هذا الغياب الظاهري للنظام بتدقيق أكثر. وعن طريق فحص سطر أو اثنين من نص المرصفي ببعض التفصيل، أريد أن أبيِّن أن الفوضى المفترضة هي نتيجة لقراءته وفقًا لافتراضاتنا الغريبة عن كيفية عمل الكلمات.

أول الكلمات الثماني التي يدرسها الكتاب هي كلمة أمة، وهو مصطلح يمكن ترجمته إلى الإنجليزية بكلمة *Community* أو *Nation* وتُفسَّر الكلمة أول ما تُفسَّر على أنها جملة من الناس تجمعهم «جامعة» وهذه يمكن ترجمتها إلى الإنجليزية بعبارة:
a group of people united by some common factor وهذه الجامعة، كما يضيف، هي اللسان، أو المكان، أو الدين(٢). لكن هذه الترجمة الإنجليزية الاصطلاحية تتفلَّت منها قوة الجملة. أولاً، لأن كلمة جملة يمكن أن تعني ليس فقط مجموعة أو جمعًا، بل كذلك تركيبة من الكلمات، أي عبارة أو جملة. والفعل جَمَعَ، يعني ليس فقط جَمَعَ أو وَحَّدَ بل يعني كذلك أَلَّفَ، أو وضع نصًا، أو كَتَبَ. في المجتمع شيء يتماسك، وفق هذا الصدى السيمانطيقي، بنفس الطريقة التي يؤلَّف بها تجميع الكلمات نصًا.

لكن هناك ما هو أكثر من هذا بكثير. فقوة الجملة تتزايد ليس فقط نتيجة الإحالات المتعددة للكلمات المفردة، بل من ترجيع المعاني الذي يقوم بين أجزاء الجملة نتيجة أصواتها المختلفة. فصوت البداية «ج م ل» ويشير إلى المجموع أو المحصلة، يجد صداه في نهاية الجملة في صوت «ج م ع» ويشير إلى الاتحاد أو التجميع أو التركيب، ويملأ صوت يكاد يكون متماثلاً، هو «م ن»، وسط الجملة، «من الناس». وهذه الأصوات بدورها تستدعي أصواتًا أخرى محتملة،

(1) Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l'Wgypte du XIXe siècle (1798-1882), P. 371.

(2) Marsafi, al - Kalim al-thaman, p. 4.

مثل «ج م ع»، أي يجمع أو يصبح عديدًا، «ج م د» ، أي تجمد، و «ج م ه ر» ، أي احتشد أو تجمهر، و «ج ل س / م ج ل س» ، وربما «م ل أ» ، أي امتلأ أو زحام ، أو تجمَّع، إلى آخره. وكل هذه الأصوات الأخرى متضمنة في المعنى في قوة الجملة. وكل تشكيله من الأصوات ترتبط بصوت آخر و تستدعيه ، بحيث إنه بالانتقال من تشكيلة إلى التالية لها يمكن ترجيع سلسةٍ لا نهائيةَ الاحتمالات للمعنى، رغم أن ذلك يحدث من بعيد، في حركة جملة واحدة.

هذه الكتابة لا تسعى إلى اكتشاف وتحقيق قوة الكلمات في معنى فريد، أحادي، بل في السماح لأصوات وإيجاءات كلمة بأن تمتزج بتلك التي تحيطها وتنتشر. وفي الإنجليزية يمكننا تسمية هذا الانتشار شعريًا أو أدبيًا. فاللغة «الأدبية» عُرِّفت بأنها نوع من الكتابة فيها «تقف الكلمات بوصفها كلمات (وحتى أصوات) بدلاً من أن تكون، على الفور، معانيَ يمكن تمثلها» وفيها «قد تكون نوعيّة الإحالة معقدة وقَلِقَة وغير واضحة»(1). في التوضيحات من هذا النوع، يُعرَف الأدبي أو الشعري بالتعارض مع شيء مألوف، مع الاستخدام البسيط أو العادي للغة البسيطة. فكل الكتابة تعمل بأن تجعل الكلمات «تقف بوصفها كلمات» أي من خلال استحضار الأصداء والتشابهات التي تختلف بها كلمة / صوت عن التالية لها.

أما في اللغة البسيطة، كما رأينا من بريال، فإننا نفهم أن الكلمات تعمل بوصفها علامات: وكان خليفة بريال في اللغويات هو سوسير *Saussure*، الذي صاغ نظريتنا الحديثة عن اللغة، قائلاً إن جوهرها الاتصال. ووفقًا لسوسير، فإن الكلمة أو العلاقة الحديثة عن اللغة، هي كيان ذو وجهين يتكوَّن من صورة صوتية «الدالّ» ومعنى «المدلول». ومثلما تُمثِّل النقاطُ الفيزيائية على القماش، في مثال بريال، صورةً فإن الصورة الصوتية تمثِّل، أو تدل على، معنى وهكذا تتكوَّن الكلمة من صورة «ماديّة» كما يقول سوسير، وفكر لا ماديّ. ووجهاها غيرُ القابلين للانفصال مثلُ وجهي ورقة، هما المادِّي والمعنوي(2).

ووجها العلاقة رغم عدم قابليتهما للانفصال، ليسا مساويًا أحدهما للآخر. فالعنصر المادِّي للكلمة هو مجرد ممثِّل المعني. أي أن الصورة الصوتية تمثِّل الفكرة، التي تنبع في مكان آخر، في عقل المتحدِّث أو المؤلِّف. وهكذا فالعنصر المادِّي ثانوي، في كل من الدرجة

(1) Geoffrey Hartman, saving the text: Literature / Derriede / philosophy (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1981), p. xxi.

(2) Ferdinand de Saussure, Course in General Linguistics, trans. Wade baskin (New York: philosophical Library, 1959), pp. 66-7.

والترتيب. إنه فقط يمثل معنًى في شكل ماديّ، لكي يوصله. والعنصر المعنوي أسبق، أقرب إلى الفكرة الأصلية التي يجري توصيلها، أقرب إلى المؤلف، إلى الأصل، وكما أوضح جاك دريدا *Jacques Derrida*، فإننا نجد هذه المراتبية، عند نُقلَةَ أخرى، في فهمنا لعلاقة الكلام بالكتابة. إذ يقال إن الكلمة المكتوبة هي تمثيل للكلمة المنطوقة. والكتابة بديل للحديث المباشرة، ويمكننا أن نجعل كلمات المؤلف حاضرة بالنسبة للقارئ في غياب المؤلف الفيزيقي. وكما أن العنصر الماديّ في اللغة المُتكَلَّمة ثانوي بالنسبة للعنصر المعنوي فإن الكتابة ثانوية بالنسبة للكلام. «إنها أبعد انفصالاً عن عقل المؤلِّف عن القصد الأصلي الذي يجري توصيله. إنها أشد بُعداً عن المعنى ذاته»[1].

إن هذه المراتبية لمعنًى أصلي وتمثيل ثانوي، التي تعمل، وتكون في خطر. في التفرقة التي نقيمها بين اللغة العادية، التي غرضها الاتصال، وبين اللغة الأدبية أو الشعرية. والكلمات التي تقف بوصفها كلمات «وحتى أصوات» هي كلمات لا تعرف مكانها المناسب في المراتبية. فيما يُسمَّى الكتابة الأدبية، لا تكون الكلمات ممثلةً مخلصةً لمؤلفها. إنها لا تَستَحضر بطريقة آلية معنًى بسيطًا، أصليًا من ذهن مؤلفها الغائب. فكما رأينا من السطر المأخوذَ من نص المرصفي، تَغتَصب هذه الكلماتُ سلطات أكبر، مستجمعةً قوتها من تداعياتها مع كلمات أخرى ومُطلقةً عنَان تنوعٍ يكاد لا ينتهي لأصداء سيمانطيقية / لفظية.

وتصنيف هذا الاغتصاب بأنه تأثير شعري أو أدبي، ثم مُعارَضته بما هو «عادي» يحمي المراتبية، فاللغة الشعرية تُعامل على أنها استثناء، يؤكِّد صحة عملية الاتصال العادية، يتم الحفاظ على التعارض الجوهري بين الصوت الماديّ والمعنى غير الماديّ، بما يحفظ العلاقة التراتبية بين العنصرين. وهنا يتعرض للخطر ما هو أكثر من مجرد نظرية لغوية. فعلى هذا التعارض المراتبي تستند ميتافيزيقا كاملة للمعنى، لها أوسع أهمية سياسية.

• نفس الشيء تماماً لكنه مختلف

ما هي بالضبط هذه الورقة الغريبة ذات الوجهين، هذه العلامة؟ لنفترض، كما يقترح ديريدا *Derrida*، أننا نرفض التسليم بالتعارض بين المعنوي وبين الماديّ (ومن ثم بين النص وبين العالم) الذي يقال إنها تتركب منه، ونرفض التسليم بعلاقتها التراتبية. فأيُّ نوع من

(1) Jacques Derrida, of Grammatology, trans. Gayatri FChakravorty spivak (Baltimore: The Johns Hopkins University press, 1974).

الأشياء إذن تكون العلامة، أيُّ نوع من الحدث؟ ستكون إجابة ديريدا هي أن العلامة لا تكون أبدًا شيئًا أو حدثًا، بمعنى مُفرَدة تجريبية معزولة وفريدة، فالكلمات لا تعمل بهذه الطريقة. ففي المحل الأول، وكما يوضح سوسير نفسه في موضوع آخر، فإن الكلمة المُفرَدة توجد دائمًا في علاقة مع كلمات أخرى مشابهة صوتيًا وخصوصيتها ببساطة هي أثرٌ للطريقة التي تختلف بها عن الكلمات المشابهة صوتيًا. كما رأينا لتونًا في حالة كلمات عربية معينة. والكلمة الإنجليزية «*Bit*»، على سبيل المثال، تكتسب تفرُّدها فقط بتمييز نفسها عن كلمات مثل «*Bet*» و«*Big*» وكلمة «*Big*» بدورها تؤسِّس لنفسها على أساس أنها مختلفة عن «*dig*» وعن «*Pig*» وهلمَّ جرًا. ونفس الشيء صحيح بالنسبة لما نسمِّيه معنى الكلمة. فمعاني «*pig*» مثلاً، تتحدَّد عن طريق كلمات أخرى، من قبيل وجود كلمة «*pork*» بالإنجليزية للإشارة إلى الخنازير حين تُقدَّم كطعام. ونفس الرابطة بين كلمة ما ومعناها، والتي كان يقال إنها جوهر العلامة يمكن تبيين أنها مجرد لحظة من عملية الاختلاف هذه ولكن نجد معنى كلمة (إذا استعرنا مثالاً من تيري إيجلتون (*Terry Eagletion*) فإننا ننظر إلى تعريفها في قاموس. والتعريف المُعطَى لنا مكوَّنٌ من كلمات أخرى. وهذه الكلمات بدورها تُعَرَّف بكلمات أكثر، وهلمَّ جرًا فالكلمات تكتسب معناها من الكلمات الأخرى، وليس من الدقة التي «تمثل» بها. والكلمة ومعناها يتضح أنهما ليسا شيئًا فريدًا ذا وجهين، بل نتاجًا لعلاقات متشابكة للاختلافات، لا يوجد «عنصر» واحد منها إلا في علاقته بالعناصر الأخرى، في نسيج ليس له حافَّة ولا ظاهر[1].

إذا لم يكن المعنى ببساطة هو ذلك المجال المجرد الذي تصل إليه في القواميس، فكيف تعني الكلمات رغم ذلك؟ يمكن الجدال، كما يبين ديريدا، أن أكثر الأشياء جوهرية بالنسبة للكلمات وحتى تعمل بوصفها كلمات، هو أنها قابلة للتكرار. العلامة التي كانت فريدة حتى بهذا المعنى -التي حدثت مرة واحدة- لن تكون علامة، لهذا فإننا حتى حين نُصرُّ على هوية شيء ما بوصفها «نفس الكلمة» فإنها في الحقيقة شيء جرى تكراره في مناسبات مختلفة، في سياقات مختلفة. وأبسط هُويَّة لكلمة ما هو كونُها هي نفسُها بهذا المعنى تتشكَّل من اختلافات، اختلاف التكرار. وثمة شيء متناقض في هذا التكرار. فمن جهة نجد أن كل ظهور للكلمة مختلف قد تختلف الكلمة في الزمان أو المكان، وقد يجري تعديلها في تنوُّع

(1) Jacques Derrida speech and phenomena, and other essays on Husserl's Theory of signs; Terry Eagleton, Lierary Theory (Oxford: Basil Blackwell, 1983), pp 127-8.

من السِّمات التجريبية، أن تُكتَب مثلاً بدلاً من أن تُنطَق. وتعتمد اللغة على إمكانية تلك التكرارات المتنوعة والمختلفة للكلمة، مثلما تعتمد على الاختلافات بين الكلمات؛ فإنها تحدث فقط بوصفها تلك التكرارات المختلفة. ومن جهة أخرى، فإن ما يتكرر يجب أن يظلّ نفسَ الكلمة. في وسط التكرارات المختلفة، وخلال كل تعديل، يجب أن يظل ثمة أثر من شيء هو نفسه بصورة يمكن التعرُّف عليها. وهذا الأثر من كون الشيء هو نفسه هو ما نخبره على أنه «معنى» الكلمة.

إذن، ينشأ المعنى لأن الكلمة هي دائمًا تكرار، بمعنًى مزدوج. إنها تكرار بمعنى شيء غير أصيل، شيء يحدث بالتعديل أو الاختلاف عن شيء آخر؛ وتكرار بمعنى كونه نفسَ -الشيء- مرة أخرى. والمعنى هو تأثير هذه الصفة المتناقضة للاختلاف ولكون الشيء هو نفسه، وبه يحدث أن تكون الكلمة هي نفسَ الشيء تمامًا لكنه مختلف[1].

وتناقض التكرار ليس شيئًا يجب حلُّه، كما يجادل ديريدا، بوصفة نتيجةً غريبةً للغة، بل على العكس، فإن اللغة شيء ممكن بواسطة حركة التكرار والاختلاف. إلا أن الأثر المتناقض لكون الشيء هو نفسَه بصورة لا تنفصم ضمن الاختلاف، هذا الأثر لا يتم الإقرار به، بل تجنُّبه. يتم تجنُّبه، بأن نفترض، مع سوسير، أن الكلمة موضوع مكوَّن من جانبَين متعارضَين، الماديِّ والمعنوي. وهذان ينتميان إلى مجالَين متمايزَين، أحدهما فيزيقي والآخر ميتافيزيقي على نحو ما، يُفترض بصورة غامضة أنهما يتوحَّدان في وحدة الكلمة. هذا التمييز الصوفي بين مجالَين هو ما يبيِّن ديريدا أنه لم يَعُد أساسيًا، بل إنه تأثير «لاهوتي». «إنه يعتمد تمامًا على إمكانية التكرارت» ويتأسَّس بواسطة هذه «الإمكانية»[2] والآن أودُّ العودة إلى العربية، والجدال بأن هذا التأثير اللاهوتي «لمجال» متميِّز للمعنى لم ينتج فيها؛ أو على الأقل بأنه، بقدر ما كان ينتُج، كان يتم الإقرار بأنه شيء لاهوتِّي، ويُعامَل على هذا الأساس.

- **غياب الحرف المتحرك (*vowel*)**

أثناء مناقشتي فيما سبق لجملة من كتاب حسين المرصفي الكَلم الثَّمان، ألمحتُ بالفعل إلى أن ما يُسمَّى بالاستعمال الأدبي للغة، والذي فيه «تقف الكلماَت بوصفَها كلمات، وحتى أصوات» لم يكن استثناء من الكتابة العادية بل كان النوع الوحيد الممكن من الكتابةً. لم يكن

(1) Derrida, speech and phenomena, p. 50; and Difference; in margins of philosophy, pp. 1-27.

(2) Derrida, Speech and Phenomena, P. 52.

ثمة «ميثولوجيا بيضاء»، كما يسميها ديريدا، يكون تفاعل الاختلافات بين الكلمات وفقًا لها شيئًا مضافًا إلى الطريقة العادية التي تثير بها الكلماتُ معنًى. أو بالأحرى، وحتى لا أكتفي بقلب ميثولوجيا الإنسان الأبيض وأجعل العربية مثالاً على غيابها، فإن مسائل المعنى وتفاعل الاختلاف ظلَّت إشكاليةً في كتابة عمل مثل الكَلِم الثَّمَان. فبدل أن تمثِّل الكلماتُ المعنَى الأحاديَّ لمؤلِّف ما، أنتجَت قوتَّها من تفاعل الاختلَافات فيمَا بينها، وهي اختلافات لا يمكن اختصارها إلىَ تفرقة بين ما هو معنوي وما هو مادِّي. لكن هذا الجدال حول طبيعة الكتابة العربية يمكن خوضه بناء على عدة سمات أخرى.

أولاً: هناك سماتها التدوينية. وقد جادل سوسير بأن الشكل المادِّي للكلمات شيء تعسفي، لا يربطه بمعناها سوى عرف صوتي. أما ديريدا فيؤكِّد أن هذا الفصل بين الشكل المادِّي والمعني يتجاهل كل الجوانب غيرَ الصوتية في الكتابة، وهي جوانب «مادِّية» إلا أنها تخلق تأثيرات المعنى مثل علامات الترقيم والمسافات، وتجاور النصوص المختلفة. وفي العربية استمرت الكتابة عمومًا دون اللجوء إلى الترقيم أو حتى المسافات بين الكلمات، وعادة ما كانت تَضَع عدة نصوص متجاورة على صفحة واحدة في علاقات دالَّة متنوعة بين كلٍّ منها والآخر، ووَضَعت تميزات دقيقةً وذاتَ معنًى بين أساليب التدوين المختلفة، وبشكل عام وَسَّعت مجال فن التدوين إلَى أرقى وأكثر أشكاله قصدية.

وهناك مجموعة أخرى من السمات وضعها ديريدا كمشكلات وهي تلك التي تجعل كتابًا أو قطعةَ كتابة أخرى تبدو وكأنها «داخل» أي موضعًا داخليًا للمعنى منفصلاً عن «العالم الواقعي» خارِجه، وصفحة العنوان والمقدمة وقائمة المحتويات أمثلة على هذه السمات، والتي تبدو وكأنها منفصلة عن النص لكنها تزوِّده بشكل وإطار خارجي، مثل خريطة مدينة. ومرة أخرى نجد أن الكتابة العربية، عمومًا، لم تستخدم هذه الوسائل، وبدلاً من ذلك كانت تستهلُّ كل عمل بدعاء مُسهَب (خطاب) وفي الواقع تجعل طريقة الانتقال من الخطاب إلى بقية النص (فصل الخطاب) موضوعًا لجدال نظري هام. هناك سمات أخرى عديدة يمكن ذكرها: دلالة فعل «الكينونة» الذي يرد في العربية في «الماضي» فقد (كان على ديريدا، متَّبعًا هايدجر *Heidegger*، أن يستعمل الزمن المضارع لفعل «الكينونة» «تحت المحو»، فيكتبه ويشطبه في نفس الوقت لأن الأداة الفارغة لفعل «الكينونة» تجعلنا ننسى كم هو إشكالي مفهوم «الوجود»؛ وإدراك اللغة بوصفها شفرةً توجد منفصلةً عن الكلمات ذاتها كبنية نحوية (لم

يدرس النحاة العرب قواعد الشفرة، بل ضروب الذاتية «النحو» والاختلاف «الصرف» في اللغة، وهما المصطلحان اللذان يُترجَمان الآن(*) بكلمتي «*syntax*» «*morphology*»؛ وأخيراً ما أسماه المستشرقون «غياب الحرف المتحرك (*vowel*) في العربية وسأنظر بإيجاز إلى هذه الفكر الأخيرة.

في التدوين العربي، كما يقال لا تُحَدَّد الحروف المتحرِّكة (*vowels*) عادة. وكتابة جملة عربية بالحروف الإنجليزية، مثل جملة المرصفي التي أوردتها أعلاه في هذا الفصل، عليها أن تضيف الحروف المتحركة الناقصة لكن هذه الطريقة في عرض الأمر طريقة مُضَلِّلة. فالحروف المتحركة «*Vowel*» هو اختراع أوروبي خاص، وليس شيئًا «ناقصًا» من العربية فالكلمات العربية تتكوَّن بما يسميه النحاة العرب «حركة» تتابع الحروف. وكل حرف يُنطَق بحركة خاصة (للفم وللأحبال الصوتية)، يُشَار إليها على أنها «فتحة»، أو «كسرة»، أو «ضمة»، والحركات المختلفة لنفس الحروف تُنتج اختلافات في المعنى فحروف «ك ت ب»، على سبيل المثال، يمكن أن تعني «كَتَبَ»، و«كُتِبَ»، و«كُتُبٌ» وهكذا طبقًا للطرق المختلفة التي يتحرك بها كل حرف. والأنواع المختلفة من الحركة هي ما يترجمه المستشرقون إلى حروف متحركة.

إلا أن الحركة ليست مكافئة للحرف المتحرك. فكما أبرز النحوي التونسي مُنصف شيللي، لا يمكن للحركة أن تُنتَج مستقلة عن الحرف ولا يمكن للحرف أن يُنتَج بدون حركة، بينما الحروف المتحركة (*Vowels*) والحروف الساكنة (*Consonants*) يبدو أنها توجد مستقلة عن بعضها[1]. ويوحي شيللي بأن هذا الاستقلال يمنح الكلمات في اللغات الأوروبية مظهراً خاصًا من الثبات، في مقابل حركة الكلمات العربية، وبمعاملة الكلمات على أنها تشكيلات متحركة من الحروف تظل الكتابةُ العربيةُ أقربَ إلى تفاعل الاختلافات الذي يُنتج المعنى. وإذا رأيناه على هذا النحو، نجد أن الحرف المتحرك ليس شيئًا ناقصًا في العربية. إنه أداة غريبة يُخفي وجودُها في الكتابة الأوروبية علاقات الاختلاف بين الكلمات، ويمنح الكلمات المفردةَ الاستقلالَ الظاهريَّ للعلامة. ويمضي شَيللي في حججه فيقول إن هذا الاستقلال الظَاهري يُضفي على الكلمات صفةَ شيء. وبوصفها أشياء/ علامات تبدو كأنها توجد مستقلة عن كونها تقال. ووجودها يبدو كشيء مستقل عن التكرار الماديّ للكلمة، ويبدو أنه يسبق مثل هذا التكرار. ومجال هذا الوجود السابق والمنفصل يسمى «المعنوي»، أي المجال المستقلُّ للمعنى.

(*) (إلى الإنجليزية – م).

(1) Chelli, La parole arabe, pp. 35-45.

كان الغرض من هذه المناقشة للكتابة العربية هو اقتراح أن العربية أقرب كثيراً من نواحٍ عدة، من اللغات الأوروبية إلى تفاعل الاختلاف الذي يُنتِج المعنى، وأبعد كثيراً بالتالي، من اللغة الأوروبية عن إحداث التأثير الميتافيزيقي للمجال المعنوي، وهو مجال «المعنى» الذي يعتقد أنه يوجد منفصلاً تمامًا عن الكلمات ذاتها تحت تسمية لاهويته هي «اللغة»، أو الحقيقة»، أو «العقل»، أو الثقافة». وعادة ما يُستَخدم عمل ديريدا ليبيِّن، عند قراءة نص بعينه، كيف يمكن جعل تأثير المعنى هذا ينهار. وليس هذا اهتمامي. فرغم السهولة التي يبدو أن مآثر التفكيك هذه تتحقق بها، فإن ما يُحتَاج إلى الشرح ليس هو السبب في انهيار المعنى بل السبب في أنه لا يفعل. فإن ما يبدو هامًا ليس هو أن نبيِّن أن خارج النص، أو خارج المَعرض، ليس هناك سوى نص آخر أو مَعرض آخر، بل أن نبحث لماذا، في هذه الحالة، أصبحنا نحيا أكثر فأكثر كما لو أن العالم مَعرض واقعي، مَعرض للواقع. ودراستي لمصر القرن التاسعَ عشرَ يُقصَد بها أن تكون دراسةَ كيفَ يصبح عالم ما مُنظَّمًا ومعيشًا وكأنه مَعرض، وينقسم على هذا النحو إلى مجالَين، مجال الأشياء، والمجال المنفصل لمعناها أو حقيقتها.

في فصول سابقة من هذا الكتاب وصفتُ بعض الطرق التي نُظِّمت بها مصر في القرن التاسعَ عشرَ لتُنتِج تأثير مجال معنوي. وكان أحد الأمثلة هو إعادة بناء المدن، بخريطة منتظمة للشوارع والواجهات الخارجية، المثال الآخر هو المراتبية الجغرافية للمدارس، المُرتَّبة بحيث تمثِّل بنية دولة / أمة، وبصورة أعم، فإن تقنية النظام التي أسميتها التأطير، في المناورات العسكرية، وفي جداول المواعيد، وفي تخطيط الفصول الدراسية والمستشفيات وفي إعادة بناء القرى وكذلك المدن، كانت في كل حالة تميل إلى إنتاج تأثير بنية، بدا أنها تقف مستقلةً كشيء معنوي وسابق.

إلا أن المعنى ليس فقط أثرًا للمعنوية، لكن كذلك أثر للقصدية. وفعل «يعني» يتضمن في نفس الوقت أن يدل على، وأن يكون له قصد أو هدف وإذا كانت قطعة من الكتابة أو عملية تمثيل أخرى تُنتِج معنى، فإنها بذلك تُنتِج انطباعًا عن قصد أو إرادة المؤلف وكلما زادت كفاءة هذا المعنى في الاستقلال كمجال خاص للقصدية، زادت كفاءة الانطباع عن هذه القصدية. ولكي أعود إلى الأسئلة حول اليقين السياسي الحديث، والتي طرحتُها في بداية هذا الفصل، أو أن أبيِّن كيف أن مناهج إحداث أثر لوجود مجال معنوي منفصل كانت في نفس الوقت منهجًا جديدًا لإحداث أثر للقصد واليقين، وإرادة المؤلف، أو بشكل أعم، للسلطة ذاتها.

• المؤلِّف والسلطة:

إننا نفهم الكتابة على أنها وسيلة اتصال، مركبة تحمل الكلمات، وداخل الكلمات المعاني الخاصة بمؤلف عبر مسافة الزمان والمكان. بفضل الكفاءة الميكانيكية لنظام الدلالات اللغوية، يمكن جعل قصد أو معنى مؤلِّف ما حاضرًا أمام جمهور رغم غياب المؤلِّف الفيزيقي. في الكتابة، يتم التغلب على غياب المؤلِّف. ووفقًا لهذا الفهم، تكون الطباعة، على سبيل المثال، مجرد وسيلة كفء للتغلب على الغياب. وتقدم تمثيلاً أوسع وأطول عمرًا لمعنى المؤلف[1].

في هذا الفهم العادي للكتابة لا تكون الطبيعة الميكانيكية للكلمات موضعَ شك أبدًا. وإذا كان باستطاعة الكتابة أن تمثِّل عقل أو معنى مؤلِّف غائب، إذا كان باستطاعتها جعل مُؤلِّف غائب حاضرًا بالنسبة للقارئ، فهذا لأن طبيعة الكلماتِ أن تعمل كممثلات لمعان مفردة. وتبدوَ آليةُ المعنى هذه مألوفةَ وغيرَ إشكالية. أما إذا كانت الكلمات تملك إمكانية أن تعمل بصورة ملتبسة، وأن تنزلق إلى ما وراء قصد مؤلفها الأصلي، وأن يُسَاء قراءتها، فإن هذه الإمكانية، كما رأينا لتونا، تُعدُّ استثناءً، وليس شيئًا جوهريًا بالنسبة للطريقة التي تعمل بها الكتابة. يجري إعلان أن الالتباس هو مجرد مسألة خطأ ضئيل، أو تأثير شعري. هكذا تظل الإمكانية داخل السيطرة في قصد المؤلف الذي يمكنه تقرير أن يكون شعريًا أو لا يكون، أن يسمح للكلمات بترخيص صغير.

ويبدو لي أنه قبل إدخال الطباعة لم يكن أي كاتب عربي يجد هذه الافتراضات غيرَ إشكالية على هذا النحو. فلم تكن الكتابةُ هي التمثيلَ الميكانيكي لمعنىَ مؤلِّف ما، وبهذا المعنى لم يكن ثمة «حضور بسيط لمؤلِّف في نص»، فسلطة المؤلِّف *Authorship* والسلطة، كانتا همومًا أكثر إشكالية بكثير. لأن الكتابة لم تكن لتمثل أبدًا بصورة غير ملتبسة، المعنى غير الملتبس لمؤلِّف، وبالتالي، لم يكن أي مؤلِّف عربي حقًا ليهتم بسلطة المطبعة. علاوة على أن مشكلة حضور المؤلِّف في الكتابة كانت تقابل حضورَ السلطة السياسية في المجتمع. وكدليل على هذه المزاعم سأعود إلى عمل ابن خلدون الذي كان الموضوعُ المحوريُ فيه هو على وجه الدقة هذا الغيابَ للمؤلف وللسلطة.

يشارك ابن خلدون في الافتراض بأن الكتابة تحاول أن تَمُدَّ حضورَ المؤلِّف. فيقول عن «الكتابة» وأما الكتابة.. فهي.. «مُبلِغَةُ ضمائرِ النفس إلى البعيد الغائب، ومُخَلِّدة نتائج

(1) Cf. Jacques Derrida, signature event context, in Margins of Philosophy, pp. 307-330.

الأفكار والعلوم في الصحوف»[1]. لكن هناك ينتهي التشابه مع افتراضاتنا نحن عن الكتابة، لأن ابن خلدون لا يفهم هذا التغلُّب على الغياب في علاقته بأي ممارسة ميكانيكية للتمثيل المكتوب، بل بوصفه مشكلةً في مركز الحياة الاجتماعية الإنسانية.

أن تكتب، وفقًا لابن خلدون، يعني أن تخاطر بأن تُساء قراءتك أو يُساء فهمك[2]. فالكلمات التي تبقى إلى ما وراء حضور مؤلِّفها تصبح طليقة. وتميل إلى الانحراف، إلى التحوُّر، إلى أن تُقرأ دون النظر إلى سياقها، وإلى أن تولِّد معانيَ جديدةً. ثم هناك دائمًا التباسها العادي[3]. وينتج من هذا أن الكلمات لا تعني، آليًا، معنًى واحدًا وقراءة نص ما هي دائمًا عمل تفسير. يقول «ولابد في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها من معرفة دلالاتها اللغوية عليها وجَودَة المَلَكة للناظر فيها»[4] لا ينشأ المعنى، كما رأينا، إلا من اختلاف حركة الحروف ـ ولا تُحرِّك الحروف ومن ثمَّ تختلف ويكون لها معنى ـ إلا حين يتلوها القارئ. ولهذا السبب فإن الدارس في كتابه «لا ينسخ التعليقات مباشرة من الكتب لكنه يقرأها بصوت عال(*) لا يجب قراءة نص ما قراءة صامته أبدًا، إذ لا بدَّ أن يُتلَى بصوت عال حتى يكون له معنى»[5]..

لكي يقرأ المرءُ نصًا -إذن- فلا بدَّ أن يتلوَه لأن الحروف العارِيَة على الصفحة ملتبسة. أما بالطريقة المناسبة، فيجب على المرء أن يقرأه بصوت عال ثلاثَ مرات، وراء معلِّم في القراءة الأولى، لا يعطي المعلِّمُ سوى تعليقات موجزة تحدِّد الخطوطَ العامةَ للأصول، وفي القراءة الثانية يقدِّم تفسيرًا كاملاً لكل جملة، بما في ذلك اختلافات التفسير بين المدارس المختلفة، وفي القراءة الثالثة يستكشف معه حتى أشدَّ المصطلحات إبهامًا والتباسًا[6]. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون المعلِّم هو من كتب النص، وإذا لم يتوفر ذلك، أن يكون واحد ممن قرأ لهم المؤلِّف النص، أو يكون قد قرأ النص على واحد منهم، وهكذا في سلسلة غير منقطعة من التلاوة تعود إلى المؤلف الأصلي.

---

(1) Ibn Khaldun, Muqaddimah, trans. Rosenthal, 2:356.

(2) Cf. Ibn Khaldun, Muqaddimat Ibn Khaldun, ed. Quatremere, 3:242 line 5, 243 lines3-4.

(3) Cf. Ibn Khaldun, Muqaddimah, trans Rosenthal, 3:55-75.

(4) ibid. 3:316.

(*) الصياغة هنا صياغتنا لأننا لم نعثر على النص في المقدمة (المترجم).

(5) ibid. 3:316.

(6) ibid. 3:292.

وفي مدينة نيسابور الإيرانية، كمثال على ذلك، فإن من يرغبون في دراسة وتدريس صحيح البخاري، الذي هو أحد أوثق كتب الحديث، «كانوا يسافرون نحو مائتي ميل إلى مدينة كُشْميْهَن بالقرب من مَرْو حيث كان هناك رجل يتلو النص من نسخة نُسخَت من نسخة أملاها البخَاريُّ ذاته. ويُحكَى لنا في مثال آخر أن الدارس أبو سهل محمد الَحفصي «درس صحيح البخاري على يد الكُشْميْهَني الذي درسه على يد محمد بن يوسف الفَربَري الذي درسه على يد البخاري نفسه. وبعد خمسة وسبعين عامًا من وفاة أستاذه الكُشْميْهَني، وجد أبو سهل محمد الحفصي نفسه. الرجل الوحيد على قيد الحياة الذي درس علَى يده» عندها أُحضر مسافة مائتي ميل إلى نيسابور، وكرَّمه حاكمها شخصيًا. «ثم أعطى دروسًا في المدرسة النِّظَامِيَّة، أملى فيها الصحيح على جمع غفير»[1]. هذه الأنواع من الممارسات لا يجب أن نُفرطَ في تفسيرها، كما يبدو لي، بالإحالات إلى غلبة أهمية الشفهي أو المحفوظ على المكتوب؛ بل يجب اعتبارها دلائل على نفس طبيعة الكتابة وسلطة المؤلِّف. فسلاسل التلاوة هذه هي وحدها التي يمكن أن تتغلب على الغياب الحتمي في داخل النص. ومع الطبيعة الملتبسة للكتابة، التي لم تكن مجرد عيب في نصوص معينة بل شيئًا جوهريًا، كما رأينا، بالنسبة للطريقة التي تكتسب بها الكلماتُ قوتَها، لم تكن لتعيد أبدًا حضورَ المؤلف. وكل ممارسات العلم العربي كانت تدور حول مشكلة التغلُّب على معنى المؤلف الذي لا لبس فيه في الكتابة.

كتب ابن خلدون في فترة أزمة سياسية في العالم العربي، كما ذكرت، كانت كذلك فترة أزمة في مشكلة غياب المؤلِّف وهذه العلاقة بين الضعف السياسي وأوجه ضعف العلم المكتوب لم تكن مصادفة بالنسبة لابن خلدون. فقد خاطب الواحدة في علاقتها بالأخرى. وهذا الارتباط يثور حتى في عنوان كتابه، «كتاب العبَر». وكما أوضح محسن مهدي، فكلمة «عبَر» ملتبسة، فهي في آن واحد تشير إلى وتوضح التباس اللغة، فالكلمة يمكن أن تعني «الدَروس» التي يجب تعلمها من النصوص التاريخية، لكنها بمعنًى توحي بكلٍّ من التعبير عن المعنى وإخفائه[1]. ويواصل العنوان الكامل هذه الصلة بين الكتابة والتاريخ، لأن بقية العنوان هي «ديوان المبتدأ أو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطات الأكبر». والستون أو السبعون صفحة الأول من النص تهتم من ثمَّ بمشكلة الكتابة.

(1) Cf. Richard W. Bulliet, the patricians of Nishapur: A study in medieval Islamic Social History (Cambridge University press, 1972, pp. 49, 57.

وتبيِّن كيف أُفسدت النصوص وأُسيئت قراءتها، وكيف انهارت تقنيات التلمذة وانقطعت سلاسل السلطةَ. وهدف الكتاب تقَديم علاج للأزمة السياسية بالتغلُّب على هذا الانهيار في الكتاب. والعلاج الذي يقدمه ابن خلدون جديد تمامًا. وهو يطالعنا من القرن الرابعَ عشرَ باعتباره محاولةً فريدةً للتغلب على أوجه الضعف الجوهرية في الكتابة. لكن العلاج ليس نظرية في التمثيل.

وحلُّه هو محاولة أن يرسي للمرة الأولى أسس التفسير، وهي أسس تحكم القراءةَ المُستَقبلةَ للنصوص. والأسُسُ تكمن في صورة «السياق» الجوهري أو «الظروف» (الأحوال) الجوهرية للحياة الاجتماعية الإنسانية. ويقدم لنا في المقدِّمة وصفًا راقيًا للحدود العادية للمجتمع الإنساني، واصفًا فيه العملية التي تتشكل فيها المجتمعات، وتنمو، وتزدهر، وتضمحل. وهذه الحدود السياقية عليها أن تحدِّدَ التفسيرَ الممكنَ لكل الأعمال المكتوبة، وتبقى قراءة التاريخ، مع فساد النصوص والالتباس العادي للكتابة، داخل حدود الاحتمال التاريخي. وكان عمله جهدًا هائلاً لتقديم حدود التفسير التي تساعد على التغلب على غياب مؤلفي الماضي، وبذلك تتيح محاكاةَ ما كان نافعًا من السجل التاريخي.

وربما يوضح ذلك الاهتمام الهائل بالكتاب في مصر القرن التاسعَ عشرَ، حيث كان الدارسون يواجهون أزمة مماثلة، وحيث فهم رجال من أمثال المرصفي الأزمة على أنها أزمة في استعمال الكلمات بدرجة كبيرة، وحلها هو تدريس الاستعمال المناسب للكتابة. إلا أن مجمل ممارسة الكتابة قد بدأ في التغيُّر منذ زمن المرصفي تقريبًا. كان مُقدَّرًا للكلمات أن تفقد قوتها، وقدرتها على التعدد في المعنى، ونزوعها إلى الرنين والترجيع مع الكلمات الأخرى لتحرك تفاعل التشابه والاختلاف. أو على الأقل كان مقدَّرًا لهذا النزوع أن يجد الإنكار، ويطوَّق باعتباره استثناءً، ويحدَّد في نطاق أسماء من قبيل الشعر. كان على جوهرها أن يصبح عملية الاتصال الميكانيكية. كان مجمل مشكلة السلطة التي خاطبها ابن خلدون سيتم التغلب عليها بنسيان الطبيعة الإشكالية للكتابة في وجه اليقين الظاهري -أثر المعنى غير الملتبس- الذي أتاحته مناهج التمثيل الحديثة. كيف كان يمكن أن يحدث ذلك التحول؟ في نطاق حدود هذا العمل لا يمكنني سوى اقتراح إجابة. كان إدخال وانتشار الطباعة أكثر العوامل وضوحًا، لكن

(1) Muhsin Mahdi, Ibn Khaldun's philosophy of History (Chicago: University of Chicago press, 1957; phoenix ed, 1964).

التغيُّر يمكن رؤيته في أنواع جديدة من الكتابة، وخصوصًا الأدبيات التربوية الضخمة التي ترعاها الدولة، وفي الصحافة الجديدة بأسلوبها «التلغرافي».

كان التلغراف والمطبعة ضمن أنواع عديدة من الآلات والتقنيات الجديدة التي أخذت تظهر في مصر والتي أدخلت ممارسة حديثة للاتصال. (وكان موظف مصري في إحدى شركات التلغراف الأوروبية، هو عبد الله النديم، هو من بدأ إنتاج أول صحيفة قومية شعبية في صيف وخريف عام ١٨٨١م)(١). وكما رأينا تبنَّى الجيش المصري تقنيات الإشارة الجديدة، التي أتاحت تجميع السيطرة على الجيوش الحديثة الضخمة للقرن التاسعَ عشرَ. أما تشغيل السكك الحديدية المصرية الجديدة، التي كانت كما ذكرت، من أشد السكك الحديدية اتساعًا في العالم بالنسبة لحجم البلاد وعدد السكان، فكانت تعتمد على نظام معقد من الإشارات والشفرات. وكان أحد الأهداف العامة للبريطانيين هو «تحسين الاتصالات، والمرور والتجارة العامة»(٢). وتضمَّن الانتشارُ التدريجي للمدارس الحكومية تقنيات جديدةً للتعليم ومناهجَ جديدةً للطاعة في الفصل. كل هذه الأنواع من التطور كانت تتطلب، خلال العقود الأخيرة من القرن التاسعَ عشرَ، أن تُستَخدم اللغة لا بالطريقة «الانتشارية» التي فحصتُها أعلاه بل كنظام دقيق من الإشارات تُعامَل فيه الكلمات وكأنها تمثُّلات لا لبسَ فيها لمعانٍ واحدة. كان الهدفُ استخدامَ الكلمات بطريقة الأوروبيين العادية، الذين لوحظوا في شوارع باريس، كما رأينا في الفصل الثاني، وهم يستخدمون الكلمات بقدر ما تكون «ضرورية لإنجاز الأعمال».

كان التحول اللغوي جزءًا من عملية التنظيم في الجيش والمدارس، وفي العمارة والسكك الحديدية، وفي مشروعات الرَّي وإنتاج الإحصاءات، وكلها مثل المَعرض العالمي، بدأت في إنتاج ما بدا أنه بنية تقف منفصلة عن الأشياء ذاتها، مجالٌ منفصل للنظام والمعني. وهذا المجال الجديد، كما أودُّ أن أجادل استنادًا على توازيه مع الكتابة، سيبدو ليس فقط كمجال للمعنى بل كذلك كمجال للقصدية / للسلطة أو اليقين السياسي. في النوع الأقدم من

---

(1) Scholch, Egypt for the Egyptians, pp. 181, 34.

(2) The Earl of Cromer, in Great Britain, foreign office, further correspondence respecting the affairs of Egypt No. 35 October- December 1890 (London: Foreign office, 1891), p. 22.

الكتابة، والذي نجد نموذجه في كتابات ابن خلدون، كان حضور قصد أو معنى المؤلِّف في كلمات نصٍّ ما، كما رأينا لتوِّنا، إشكاليًا من الناحية الجوهرية. وكانت مشكلةُ حضور المؤلف في الكتابة تُناظر مشكلة حضور السلطة في الحياة السياسية. أما الطريقة الجديدة في الكتابة والاتصال فقد جعلت إعادة تقديم معنى المؤلِّف يبدو من الناحية الجوهرية عمليةً ميكانيكيةً غيرَ إشكالية. الآن، سيكون الحضور غير الإشكالي للمؤلِّف في الكتابة، في كل المجالات الأخرى للتنظيم التي تميِّز العالمَ بوصفه مَعرضًا، مُناظرًا لإنتاج حضور ميكانيكي وغير إشكالي من الناحية الجوهرية للسلطة في الحياة السياسية.

هذه السلطة السياسية، التي تُنتَج في الدولة الحديثة بالطريقة التي يُنتَج بها نصٌّ حديثُ الأثر غيرُ الملتبس للمؤلف ستبدو حاضرةً بصورة متصلة وبطريقة ميكانيكية. وفي نفس الوقت، ستقف هذه السلطة منفصلةً بصورة غامضة، مثل معنى المؤلِّف. ومثلما لا يوجد المعنى في «مادة» الكلمات ذاتها، بل يبدو أنه ينتمي إلى مجال منفصل عقلي أو معنوي تظل الكلمات تعيد تقديمه، فإن السلطة السياسية ستوجد الآن منفصلة كأنها شيء ميتافيزيقي، يظل يعاد تقديمه باستمرار في العالم المادِّي. ستصبح السلطة شيئًا ميكانيكيًا وغامضًا معًا: يقينيًا ومباشرًا مثل عملية المعنى ويماثلها في الميتافيزيقية.

ولأختمَ هذا الفصل، أودُّ أن أقدم دليلاً ما على أن هذا التحول في طبيعة السلطة قد حدثَ، بطريقة توازي التحولَ في طبيعة المؤلِّف، ومعنى المؤلِّف في النص والدليل الذي سأقدمه هو صورة شائعة عن طبيعة ومكان السلطة، صورة المجتمع بوصفه جسمًا. وأريد هنا أن أبيِّن، بالفعل، تحولاً حدث بصورة متوازية، في ثلاثة مجالات مختلفة: في مفهوم الكتابة، ومفهوم الجسم، ومفهوم السياسة.

• آلة الحكم

يمكن أن نجد وصف المجتمع السياسي بأنه جسم على طول تاريخ الأدب العربي. وفي الكتابات السياسية الجديدة لستينيات وسبعينيات القرن التاسعَ عشرَ، ظلت هذه الصورةُ أكثرَ الصور التي يلجأ إليها الكُتَّاب شيوعًا حينما يشرحون تناغم وتراتبية الحياة الاجتماعية، وحتى حين يقدِّمون موضوعات جديدةً مثلَ القومية والتربية. «ولا شك أن الوطن كالجسد»، هكذا كتب الطهطاوي في الصفَحات الأولى لمنهج الألباب، وأن الأفراد والجماعات يكوِّنون أطرافه

أو أعضاءه[١]. وقد استند المرصفي في الكَلِم الثَّمَان على الجسم بنفس الطريقة، كلما أراد شرح كيف أن المجتمع يتألف من أجزاء تتفاعَل مع بعضها. وعند مناقشته للتربية، قال إن هدفها هو تعليم الطالب «أن أمّته بمنزلة جسمٍ هو بعضُ أعضائها»[٢].

كذلك فإن جمال الدين الأفغاني، الدارس الإيراني المولد والداعية السياسي الذي كان يدرس في مصر في نفس زمن المرصفي، استخدم الجسم الحي كذلك للتعبير عن طبيعة الحياة الاجتماعية. وكل عضو أو طرف يناظر مهنةً أو حرفةً معينةً، وهي المجموعاتُ الاجتماعيةُ التي ينتمي إليها جميع الأفراد. والحكومةُ التي هيَ إحدى هذه المهَن، يمكن اعتبارها بمثابة المُخّ، والحدادة بمثابة الذراعين، والزراعة بمثابة الكبد، والملاحَة بمثابة الساقين، وهلمَّ جرًا[٣]. وَقدمَّ هذا تعبيرًا قويًا عن نظام العالم الاجتماعي وعَن سلطة مختلف المجموعات داخله، وكثيرًا ما استُخدمَت قوته في الجدال السياسي. وحين دُعي الأفغاني عام ١٨٧٠ ليلقي خطابًا في اسطنبولَ في افتتاح الجامعة الجديدة دافع عن أهَمية الفكر الفلسفي في المجتمع بالإشارة إلى أن الموضع الجسدي للفلسفة كحرفة يجاور موضع النبوة، أي في موضع الروح. لكن محاولة إعطاء ممارسة الفلسفة منزلةً ذاتَ سلطة في النظام الاجتماعي، معبرًا عنها بالنسبة لأجزاء الجسم، أثارت عاصفة في مؤسسة اسطنبول الدراسية والدينية، وطُرِد الأفغاني من البلاد[٤].

كانت صورة الجسم قويةً لأنها تزوِّد العناصر المنفصلة للعالم الإنساني بوضوحها، وتكشف عن العلاقات ذات المعنى بينها. كان الجسمُ الحيُّ صورةً تعبِّر عن نظام للأشياء معطى في طبيعة الوجود الإنساني، ويمكن منها استنباط كيف يجب ترتيب العالم الاجتماعي. وكانت توضح التراتبات في المهمة وفي المكانة، بتوضيح الصلات التي تربط مختلف المجموعات في كل متصل. «فكما أن لكل عضو من أعضاء الجسم وظيفةً يؤدِّيها بالطبع لا يرى بعض الأعضاء لعمله شرفًا ولا يرى الآخر في عمله خسَّة، كلٌّ سهل المضي فيما خُلق لأجله، . . . كذلك أشخاص الأمة، يجب أن يكون كلٌّ ماضيًا في وظيفته. .»[٥] ومثل دائرة

(1) Tahtawi, al-Amal al-kamila, 1:520.

(2) Marsafi, al-kalim al-thaman, pp. 11, 93, 142

(3) Rashid Rda, Tarikh al-ustadh al-imam Muhammad Abduh, 1:30-31.

(4) Homa pakdaman, Djamal ed-Din Assad Abadi dit Afghani (paris: Maisonneuve.

(5) Marsafi, al-Kalim al-thaman, p. 93.

الكلمات الثماني المذكورة فيما سبق، لم يكن هذا الكلُّ المتصل نظامًا يُدرك في الصورة، الشائعة بيننا اليوم، لداخلٍ ضد خارج، لعالم ماديٍّ ضد بنيته، أو لجسم فيزيقي ضد كيانه العقلي المسمى «العقل». هكذا كان الحكام يناظرون، ببساطة، عضواً خاصًا من أعضاء الجسم. ومثلما لم يكن يجري التفكير في الكتابة بالتعبيرات البسيطة لحضور ميتافيزيقي لمعنى مؤلَّف ما في نص فيزيقي، كذلك لم يكن في صورة الجسم سلطة مجردة، ولا مصدر داخلي للسلطة يحكم خارجًا فيزيقيا.

إلا أنه، حتى بين كُتَّاب سبعينيات القرن التاسعَ عشرَ، كان الجسم كاستعارة قد بدأ يُبدي أعراض الإجهاد. كان يجري الحديث عن الجسم، لكن عادة من أجل القول بأن عضواً حيويًا كان ينقصه(1). أو أن طرفًا من أطرافه مريض ويجب إزالته(2). وكان على المعلِّمين أن يعلِّموا طلبتهم في المدارس الحكومية الجديدة أنهم أطراف وأعضاء في جسم واحد وأنهم إذا فَشلوا في عمل ذلك فسوف يفشل الجسم نفسه/ لن يتحقق المجتمع(3). كانت الممارسات السياسية الجديدة، تجعل هذه الصورة للجسم غيرَ ملائمة. فتنظيم المدارس، ونشر النظام العسكري، وإعادة بناء عاصمة البلاد وغيرها من المدن والقرى، وكانت مناهج النظام الجديدة التي ناقشتُها في الفصول السابقة، كانت كلُّها عمليات تُدخل صورةً جديدة للجسم وفي نفس الوقت أثرًا جديدًا للسلطة السياسية. وبحلول العقودِ الأخيرة من القرن التاسعَ عشرَ، كانت الصورة القديمة للجسم نادراً ما تُستَخدم في الكتابة السياسية. وحيثما ظهر الجسم، كان ذلك يحدث بمعنًى جديد تمامًا.

• لا مرئي ورغم ذلك واقعي

تظهر الصورة على سبيل المثال، في كتاب محمد مجدي: «ثمانية عشر يومًا بصعيد مصر»، وهو تقرير عن رحلته مصعداً في النيل عام ١٨٩٢ على إحدى بواخر توماس كوك. والسياق ذو دلالة على التغيرات الحادثة في مصر. كان مجدي موظفًا بمحكمة الاستئناف المصرية، وسافر كسائح على سفينة تحمل البريد، والموظفين الاستعماريين، وضباط جيش الاحتلال. وكانت سنة ١٨٩٢ هي أول فرصة لمجدي ليطوف بصعيد مصر منذ الانتفاضة

---

(1) See for example al - Afghani, cited in Pakdaman, Djamal ed_Din, p. 47, See for example Tahtawi, al-Amal al kamiala, 1:247.

(2) See for example al-Afghani, cited in pakdaman, Djamal ed-Din, p. 47.

(3) Marsafi, al - Kalim al-thaman, p. 93.

الوطنية لأعوام (٨٠- ١٨٨٢)، لأن الأمر، كما ذكرتُ في الفصل السابق، استغرق من البريطانيين عشر سنوات لقمع مقاومة الأقاليم للاحتلال[١]. وحين صَعد على ظهر الباخرة وانطلق من القاهرة، وصف البلاد بأنها جسم، قلبه هو العاصمة.

«لما غادرتُ القاهرة أفكِّر فيها على أنها قلب بلادنا، نكون نحن فيها مثلَ ذرَّات كُرويَّة من الدم(*)، ونجتمع ونستقيم بها.. نخرج منها كما يسير سائل الحياة وكأننا مدفوعون لحركة منتظمة عليها حياة الجسم»[٢].

هذه الصورة للمجتمع كجسم شديدة الاختلاف عن الاستخدام الأسبق لها. فلم يعد الجسم شيئًا مكونًا من مجموعات اجتماعية تشكل مختلف أطرافه وأعضائه. بل يوجد مستقلاً عن الناس أنفسهم، كنوع من الآلة. والعضو المذكور هنا، وهو القلب، الذي يناظر العاصمةَ الاستعماريةَ الجديدةَ، هو مضخَّة تدير الماكينة. وليس الأفراد أجزاءً من الجسم، بل ذرات متجانسة تناسب داخله. وأجزاء الجسم الميكانيكية تقوم بصب، وتنظيم، وتحريك هذه الذرات المتحركة.

وهناك مثال ثان يقدمه مقالٌ نشر في مارس عام ١٩٠٠ في إحدى صحف مصر اليومية الجديدة، اللواء، يناقش الحاجة السياسية إلى التعليم المنظَّم، يقارن المقالُ نظامَ المدارس في البلاد بالجهاز العصبي للجسم. يقول: إن كل مدرسة يمكن اعتبارها إحدى نهايات الأعصاب المفردة، ونهايات الأعصاب متصلة ثانية بالجهاز العصبي المركزي للجسم. ويتحكم في الجهاز وينظمه المخ، الذي هو وزارة المعارف. ترسل الأوامر من المخ إلى المدارس عند نهاية الأعصاب. فتعيد بدورها إرسال نبضات تسجل رد فعل المدرسة نتيجة اتصالها بالخارج. ورغم أن الجسم في هذه الصورة ما زال يبدو أنه يشير إلى الطريقة التي تربط بها الأجزاء معًا، فقد أصبح شيئًا مختلفًا تمامًا. فالارتباط الذي يشير إليه ليس تفاعلَ أعضاء منفصلة تشكِّل كلًا واحدًا، بل هو علاقة داخل بخارج لم تكن الصور السابقة لأجزاء الجسم ليس فقط شيئًا ميكانيكيًا، بل شيئًا له سطح خارجي. وعلاقته بالخارج تجعل منه داخلاً. وهذا الداخل يشكل جهازًا سياسيًا، أقصى امتداداته هي المدرسة. ولأنه يبدو وكأنه يوجد مستقلاً عن عالم

(1) Muhammad Majdi, thamaniyata ashar yawman bi-sa'id Misr, sanat 1310 (Cairo: Matba'at al-Mawsu'at, 1319h), p. 42.

(*) هذا الجزء من صياغتنا من الإنجليزية لعدم العثور على الكتاب وما يتلو ذلك وافانا به المؤلف (المترجم).

(2) ibid. p. 50

«خارجه»، فلا بد لجهاز السياسة والمدارس أن يلمس هذا العالم الخارجي، ويرسل ثانية رسائلَ عنه، ويعمل عليه. لم يكن من المعتقد أن الصور القديمة عن الجسم يمكن أن تعبر أبدًا عن مثل هذه المفاهيم.

هذه الأمثلة تبيِّن كيف تغيَّرت الصورة السياسية للجسم، متمشية مع الممارسات السياسية الجديدة. فالجسم باعتباره تناغمًا لأجزاء متفاعلة حلَّ محلّه الجسم باعتباره جهازًا، يُعرَف باسم السياسة، أو المدارس، أو الحكومة، أو الدولة. ويتم التفكير فيه على أنه بنية تتحرك الذراتُ داخلها، أو كآلية داخلية تعمل على شيء خارجي بالنسبة لها، هو الناس أو المجتمع المصري، أو العالم الخارجي. ومثل عملية الكتابة، أصبحت العملية السياسية ينظر إليها أكثر فأكثر في علاقتها بهذا النوع من الجهاز الميكانيكي، الداخلي/ الخارجي. ربما لم يكن ثمة ما يبدو أكثر مباشرة وأقل ميتافيزيقية من فكرة الآلة، مثلما ليس هناك ما يبدو أكثر مباشرة من العملية الميكانيكية للتمثيل التي نفهم عن طريقها طبيعة المعنى. لكن الآلة لا تطرأ أبدًا من تلقاء ذاتها. وما يضفي الطابع الصوفي على الآلة هو أن التفكير في شيء على أنه مجرد آلة يتضمن دائمًا شيئًا آخر مستقلاً عن الآلة؛ مثلما أن ما يضفي الطابع الصوفي على المَعرِض ـ كما اقترحت في الفصل الأول ـ هو الأثر الذي ينتجه عن عالم واقعي خارجه، عن مكان وراء عملية التمثيل. وصورة الآلة تتيح أوجه فصل أساسية معينة، رغم أنها بديهية ظاهريًا، في فهم العالم السياسي: فصل بين الآلة وبين «المادة الخام» خارجها، وكذلك بين الآلية ومن يشغِّلها. وهذه الانفصالات، التي تمرُّ دون أن تُلحَظ، هي التي يتضح أنها إشكالية. وسوف أوضِّح هذا بمثال أخير.

مثلما كانت آلاتُ الحرب والاتصال الجديدة جوهريةً بالنسبة للاحتلال البريطاني الاستعماري لمصر، كما رأينا في مستهل هذا الفصل، كانت الآلة استعارة ***Metaphor*** مفضلة بين المديرين الاستعماريين البريطانيين. وفي كتاب كرومر «مصر الحديثة» يصف نظام السلطة الاستعمارية المرة بعد المرة على أنه آلة وفي الحقيقة على أنه «واحدة من أكثر الآلات السياسية والإدارية التي عرفها العالم تعقيدًا على الإطلاق» وفصول كتاب كرومر كرَّسه لمناقشة «طبيعة الآلة» ولوصف «أجزاء الآلة» ومن أجل شرح الهدف المثالي للحكم الاستعماري، تجري مقارنات صريحة مع الآلة البخارية، حيث «ينظم المعدل الذي تدور به كل عجلة بدرجة دقيقة». وصمَّامات الأمان و «مختلف الكوابح والكوابح المضادة الأخرى

مطلوبة بوصفها ضمانات ضد الحوادث» وعمومًا يجب أن يعمل كل جزء من الآلة تحت «السيطرة التامة»[1].

يمكن اعتبار نص كرومر أحد الأعمال الرئيسية لعلم السياسة الحديث، وهو يُؤذن في لغته بنوع التعبيرات التي كان مطلوبًا من علم السياسة أن يطوِّرَها. فالسياسة تدرك ميكانيكيًا، في علاقتها بالاتزان والسيطرة، والمدخلات والمخرجات، أو بتعبير كرومر، المواد الخام والصنف المُصنَّع. كتب يقول إن المسئول الاستعماري «سرعان ما سيجد أن المصري، الذي يودُّ أن يسبكه في شيء نافع حقًا.. لا يعدو أن يكون أشدًّ المواد الخام فجاجةً». والأدوات التي يعمل بها هي التي ستحدد «امتياز الصنف المُصنَّع»[2] ما هو سياسي هو آلة، تعمل على عالم خارجي، عالم تطرأ فيه حيَوَات المصريين على أنها «مادة خام».

هذه الصورة للعملية السياسية تناظر كُلًا من الصورة الميكانيكية الجديدة للجسم والفهم الجديد للكتابة. الآن كان يجب فهم الكَتابة أيضًا على أنها مجرد جهاز أو أداة، مثل الجسم وبالتالي مثل آلة السياسة، جهاز اتصال يقوم برد فعل تجاه أو يعمل على عالم خارجي بالنسبة له. وعلى غرار هذا الفهم للنص، فإن سياسة العالم بوصفه مَعرِضًا ستفترض الآن مسبقًا خارجها غير الإشكالي، أي العالم الخارجي خارجها والذي يشكِّل مرجعها العظيم. إلا أنه رغم أن الكتابة، والجسم، والعملية السياسية كانت كل واحدة منها بطريقة ميكانيكية، فإن كلا منها بدت أنها تشارك في طبيعة فيزيقية/ ميتافيزيقية متماثلة. وتمامًا مثلما يفترض الفهم الميكانيكي للجسم سلفًا «العقل»، أي الوعي الذي يقوم بتشغيله، الوعي اللاميكانيكي (اللافيزيقي) الذي ينقل الجسم بصورة ميكانيكية أوامره ومقاصده، فإن الكتابة الآن ستفترض سلفًا وعيًا يقوم بتشغيلها. وبالمعنى الحديث عندما، سيكون النص تمثيلاً لمؤلِّف، يكون النص مجرد آلة لمقاصده ومعانيه على نفس النحو. ومثلما أصبح الجسم الآن يُنظَر إليه على أنه مركبة يتصل العقل من خلالها مع العالم، فكذلك الكتابة سيُنظَر إليها من الآن فصاعدًا على أنها مجرد مركبة للاتصال تجعل عقل المؤلف أو حقيقته حاضرة في العالم. والسياسة، بدورها، سيُنظَر إليها على أنها آلة غامضة تجعل حاضرًا ذلك المجال المعنوي لسلطة، هي الدولة داخل العالم الماديِّ للمجتمع.

(1) Cromer, Modern Egypt, 2:257, 260.

(2) ibid. 2:13.

بعد أربعة فصول من مصر الحديثة تصف مختلف أجزاء الآلة السياسية، يصل كرومر إلى وصف نفسه، القنصل العام. والفقرة التي يقدِّم فيها نفسه توضِّح هذا المفهومَ الجديدَ للسلطة إذ يقال لنا إن سلطته ميكانيكية، مثل سلطة الأجزاء الأخرى في الجهاز الاستعماري، ورغم ذلك فإنها، كما سنقرأ لا مرئية. إنها شيء واقعي، لكنه خفيٌّ يعمل من خلال الآلة لكنه يوجد منفصلاً عنها. وللتعبير عن هذه الفكرة الغريبة تتراوح الاستعارة، عند لحظة معينة في الكتابة بين الآلة والجسم «بذلنا جهدًا في الفصول الأربعة السالفة لإعطاء فكرة ما عن آلة الحكم في مصر. . » هكذا يبدأ كرومر.

«لأن هذا الوصف ناقص؛ وفي الحقيقة يكاد يكون مضلِّلاً من بعض النواحي؛ لأن الإشارة لم تَجر حتى الآن إلا إلى تلك الأجزاء من آلة الدولة التي يمكن وصف وظائفها ببعض الدقَّة. ورغم ذلك، فهناك أجزاءٌ أخرى من تلك الآلة لا تخضع وظائفها للتعريف الدقيق، لكن وجودها واقعي رغم ذلك. وفي الواقع، فإن كون الآلة كلها تعمل بصورة جيدة أو سيئة يَعتَمد بدرجة ليست صغيرة على عمل تلك الأجزاء من الآلة التي قد تبدو، لمراقب سطحي، غير ضرورية، إذا لم تكن ضارةً بتشغيلها الكفء. إن اللامرئي، في جسم السياسة المصري عادةً ما يكون أشدَّ أهمية مما هو مرئي. وبشكل ملحوظ، في السنوات الأخيرة وُضِعَت سلطة مبهمة لكنها فائقة بين يدي القنصل العام البريطاني. . [(1)]».

ناقش كرومر سلطة وأداء كل جزء من الجهاز السياسي على طول عدة صفحات دون أن يستخدم مرة واحدة -على حدٍّ علمي- صورة الجسم. وفي اللحظة التي يتحوَّل فيها إلى مناقشة السلطة ذاتها -السلطة المبهمة، الخفية، الفائقة لـ «المُمَثِّل البريطاني» الذي «يمثِّل» السلطة الاستعمارية ذاتها- ترتبط استعارة الآلة فجأة بالجسم في علاقته بـ «جسم السياسة» يمكن للمرء أن يتحدث عن اللامرئي. يمكن إضافة كيان منفصل إلى الجهاز الفيزيقي للجسم، هو المجال اللافيزيقي اللامنظور للسلطة ذاتها. تظهر السلطة الاستعمارية على أنها هذه السلطة الميتافيزيقية اللامرئية، لكنها «رغم ذلك واقعية» ورغم أن الاستعارة تتحوَّل من الآلة، مثل الجسم الفيزيقي، تتضمن دائمًا قوة لاميكانيكية منفصلة عنها. هناك دائمًا إلى جانب الآلة من يديرها أو «القوة الدافعة»، كما يقول كرومر، أي عمل إرادة لامرئية.

(1) ibid. 2:321, emphasis added.

ما يهم بصدد هذه اللغة ليس كيفية تمثيلها بصورة جيدة لعمل السلطة الاستعمارية. فما يثير الاهتمام هو نوع المخيِّلة التصورية التي لا بد أن تلجأ إليها كتاباتُ مثل مصر الحديثة لكي ترجع بصدًى وتُناظر الآثارَ الغربيةَ للسلطة الاستعمارية. السؤال المهم هو: أيِ نوعٍ من الأشياء يجب أن تكَونه السلطة الاستعمارية أو الحديثة، إذا كان لا بد من تصوُّرها على شكل آلة. فالآلة تتضمن دائمًا من يشغِّلُها ويكون مستقلاً عنها مثلما تتميز الكتابة الآن عن معنى مؤلِّفها ويتمايز الجسم الفيزيقي عن عقله. وفي كل حالة ثمة فصل مطلق بين جهاز منظور ماديّ وبين قصد، أو معنى، أو حقيقة تُقدَّم باستمرار من داخله. والعالم المُقَسَّم إلى مجالَين الذي كنت أصفه في هذه الصفحات، هو عالم تعمل فيه السلطة السياسية، رغم كونها ميكروفيزيقية، تعمل باستمرار بحيث تبدو شيئًا مستقلًا عن العالم الواقعي، محدثةً أثر سلطة ميتافيزيقية معينة.

●●●